رواية

made in بريطانيا

جريمة مجهولة المصدر

أسماء أبوالعطا

الطبعة: الثانية.

الكتاب: بريطانيا Made In.

الكاتب: أسماء أبو العطا.

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ.

الإخراج الفني: محمود ربيع.

رقم الإيداع: ٣٦٦٦/ ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٨٩-٠٨-٤

كاريزما للنشر والتوزيع

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين بجوار مدارس حسام الدين الخاصة – فيصل – الجيزة.

موبايل: ٠١٠٠٩٨٢٣٩٨٤ - ٠١١٢٦٠٢٦٦٩١ - ٠١٠٦١٨١٣٣٤٥

جميع الحقوق محفوظة

جميع الأحداث التاريخية في هذه الرواية حقيقيةٌ، أمَّا الأبطال فهم من محض الخيال، وأيُّ تشابهٍ بينهم وبين الشخصيات الواقعية هو من واقع المصادفة.

عزيزي القارئ:

هذا العمل ما هو إلا تصادم الأمنيات بجدار التاريخ.

لا أقصد بالأمنيات تلك التي تقف لها ليلاً في شرفة منزلكَ وتنظر للقمر ثم تغمض عينيكَ مصلّياً من أجلها، بل هي أمنياتٌ موحدةٌ مدفونةٌ في بقعةٍ ما داخل كلٍّ منّا.

البعض يحاول الوصول إليها في منامه ليلاً، والبعض الآخر يتنكّر لها بدعوة « خلينا في حالنا »، وأكثرنا شقاءً أولئك الذين لا يعرفون بوجود هذه الأمنيات.

صديقي،

هل لي أن أخبركَ بملاحظةٍ صغيرةٍ؟

هنا بالذات، ربَّما لأنني هنا أضمن ألّا تصل ملاحظتي إلى الفيلات الفارهة، ولا القصور العالية، فمَن من ساكنيهم سيضيّع وقته في قراءة روايةٍ لا أمل في أن تتحوّل يوماً إلى فيلم سينمائي؟، أو ربّما لأنني بكتابتها هنا لن أكون بحاجةٍ إلى الخوض في نقاشٍ طويلٍ.

كلّما مررتُ بجوار « مستشفى العباسية للأمراض النفسية والعصبية « شعرتُ بفرقٍ شاسع بين مَن هم داخل أسوارها والجالسون في حدائقها، وبين أولئك المجانين الذين يزحفون على وجوههم في الشوارع من أجل شهادةٍ جامعيّةٍ تزين صالون منازلهم التي تشبه علبة السردين، وأولئك الذين يسكنون القصورَ ويتصارعون على كسب الأموال ثمَّ يموتون مِيتة دنيئة ولم تغنِ عنهم أموالهم، الأسرّة البيضاء والشعر الأشعث والجلباب المرقّع والعباسية ليسَتْ دليلاً حقيقياً على الجنون؛ فقد يأتيكَ الجنون على هيئة أستاذٍ جامعيٍّ يقول لكَ: إنَّ الجامعة ليست مكاناً للنوم في الوقت الذي يطالبك فيه بالمذاكرة في المنزل الذي خُصِّص للنوم.

أو ربّما يأتيك الجنون على هيئة طبيبٍ أقسم اليمين بإرادته ثم أتاكَ ليقول: إنَّ حالتك تدهورتْ وفي طورها الأخير؛لتجده يروّعكَ بضرورة إتمام عملية جراحية تبيع من أجلها كلَّ ما تملك؛ لأنَّكَ

لـن تكـون في حاجـة إليـه «والحـيّ أبقـى مـن الميّـت «.

وقـد يلبـس الجنـون سـترةً أنيقـةً وقبعـةً رماديـةً ويضـع سـيجاراً فخمـاً في جانـب فمـه، وعطـراً فوّاحـاً، وحـذاء ماركـة عالميـة .. يأتيـك محتـلًا يطالبـكَ بحقـه في أرضـكَ، يعـدّ عليـك أنفاسـكَ، يكشـف الغطـاء عنـكَ دون حيـاء، لا يـأذن لـك في شـراء راحـة بالـكَ، ثـمّ يـتركـكَ بعـد أن أصبحـتَ رثّـاً باليـاً ويرسـلٍ لـكَ باقـة مـن الـورد الأحمـر بهـا أقصوصـة صغـيرة كُتِـب عليهـا بخـطّ منمّـق « لقـد وعدنـا إسـرائيل بأرضـكَ، وعـد بلفـور».

أسماء أبو العطا

حينما وقعَتْ عيني عليه للمرّة الأولى وجدتُه يجلس على مقعدٍ وثيرٍ يضع ساقاً فوق الأخرى، ينفس دخان البيب بعمقٍ، له شاربٌ منمق ولحية مهذبة وشعيرات بيضاء قليلة تنتشر بنظامٍ في مقدمة رأسه، ساعة ماركة rolex تزين معصمه، وعطر coach يغرق سترته، وقبل أن أمدّ يدي لأصافحه وجدتني أرتدّ عائداً للوراء بعدما نفذَتْ رائحة عقله الفارغ إلى رأسي، فعُدتُ مسرعاً إلى الحقل خشية أن تنتقلَ العدوى إليَّ.

كان منزل دكتور « عزّ» هادئاً تماماً في العاشرة مساءً كعادة أيّ منزلٍ لرجلٍ أعزب، وعلى الرغم من رائحة القهوة التي كانَتْ تعبق المنزل بشكلٍ يوحي إليك أنكَ داخل شقة صغيرة في زقاق حيٍّ شعبيٍّ إلا أنَّ الشقة الفسيحة التي يسكن بها ذلك الرجل الأعزب الذي أوشكَ أن يتمَّ عامه السّتين كانتْ منظمةً كما لو كان بها عشر نساء يقفْنَ على خدمتها.

أغلق دكتور « عزّ» نوافذ الشقّة بعدما انتهى من قراءة كتابه الذي يؤنس وحدته التي ارتضاها لنفسه، فربّما كانت حياته غاليةً للدرجة التي لم يرتقِ أحدٌ لمشاركته فيها، ومَن يدري؟، ربَّما كانت تافهةً بالقدر الذي يجعله لا يعبأ بأن يشاركه أحدٌ إيَّاها !

اتجه إلى سريره وهو يتدثّر بردائه الشتويّ، والبرد

يفتك بعظامه، وضع رأسه على الوسادة وهو يغمض عينيه، ويشدّ الغطاء على جسده بالكامل كطقسٍ يقوم به لاستدعاء النوم.

شعر برجفةٍ في جسده على إثر صوت تحطيم زجاج النافذة، وقبل أن ينفض الغطاء عن جسده، كانَتْ هناك يدٌ قويّةٌ تكمّم فاه وتخمد حركته، حملق بعينه في الفراغ، كلّ شيءٍ سيمرّ، السّيّئ والأسوأ سيّان بالنسبة له، رفع عينيه نحو الشخص الذي يضغط على فكّه وقد حُبسَت مقلتاه بالدموع في حين لم يرمش جفن لذلك الشخص الذي أوشك على إنهاء حياته.

يبدو من علوّ المسافة بينهما أنَّ القاتل كان ضخم الجثة، حليق الرأس، عيناه تنطقان بجملةٍ واحدةٍ: لا تهمني حياتكَ أو موتكَ.

ترى ماذا فعل في حياته حتى تكون النهاية بهذه البشاعة، خفض عينيه عنه وقد بدأتْ أنفاسه بالاستسلام.

شدَّ القاتل يدَه على فمه كأنّه يريد أن يعطي دافعاً

أكبر لروح ضحيّته كي تخرج من مسكنها، ثم اقترب من أُذنه وقال بصوت يشبه الفحيح:

- أين الأوراق؟

كانت قُوى «عزّ» قد خارَتْ، وبدأ يرحب بالموت أو أنه كان مجبراً على الترحيب به، خفّ قبضته عنه وهو يعيد سؤاله:

- أين الأوراق؟

ابتلع ريقه بصعوبةٍ، ونسمة هواء باردة تسلَّلت إلى رئتيه فشعر بهما تحترقان، فقال وهو يسعل بشدةٍ:

- أيّ أوراق؟!

وكزه في كتفه بعصبيةٍ وهو يضغط على مخارج حروفه:

- الأوراق التي أعطاها لك دكتور « أبو المجد».

كانت أنفاس دكتور «عز» تقل تدريجياً، فأشار إلى درج بجوار سريره، ففتحه القاتل بسرعةٍ، وأخرج منه ظرفاً كبيراً كتب عليه بخطٍّ منمقٍ «دكتور أبوالمجد»، لمعَتْ

عينا القاتل بانتصارٍ وهو يدسّ الظرف بين ملابسه، ثم عاد إلى فم الدكتور «عزّ» من جديدٍ، فأمسك به قبل أن يستطيع الأخير أن يهرب من أسره، هذه المرّة شعر بأنَّ الموت أقرب إليه من التقاط نفَسه القادم.

شعر بأنَّ حرارته تنخفض، فقدان غامض للإحساس في أطرافه، انسحب الدم إلى صميم جسده ليحمي أعضاءه الداخلية الحرجة، صرخات طفلٍ لم يولد، ابتسامة فتاةٍ لم يرزق بها، هنيان!

تباطأت سرعة التنفس، سمع صدى قهقهةٍ في نفسه ساخرة من جسده الذي يقوم بمحاولته الأخيرة للحفاظ على حرارته المتبقية، فأغلق جميع الفاعليات باستثناء القلب والتنفس، لحظات قليلة قضاها وهو يرى محبوبته التي صام بعدَها عن كلّ نساء الكون، وقفته بين طلابه في المحاضرة، شهادة الدكتوراه بعد عناءٍ طويلٍ، أيّام الجامعة وهو طالب ينتظر كلّ جمعةٍ للقاءحبيبته.

شعرأنَّه منهكٌ كملاكم في الجولة الثانية عشرة، لم

يُهزم بالضربة القاضية، ولكنّه هزم بالنقاط بعد كفاح طويل، شعر بالخدر يسري ببدنه كأنَّه عقار مُخدِّر للترحيب بما هو آتٍ، مورفين الطبيعة!، شعاع نور يتراقص في عينيه، بدأ جسده ينغلق ببطءٍ خامداً من تأثير قوةٍ خفيةٍ تسحبه للنوم الأبدي، وانسحب الدم من أطرافه كطاقم هجر سفينته، لم يعد يشعر بشيءٍ آخر فقد حلّ الظلام وسكن كلّ شيءٍ بعده.

****

(١)

القاهرة ٢٠٢٠

تكدَّست الأوراق على مكتبه، وتناثرت الكتب حوله في كلّ مكانٍ بالغرفة،غرفة مكتبه المحرّمة على الجميع لاسيما زوجته وأولاده، لقد رفض العالم الكبير وأستاذ الجامعة أن يؤي ببيته أحداً من الخدم على الرغم من حاجة المنزل إليهم خاصّة في ظل مرض زوجته وأولاده الذين لم يتجاوز أكبرهم خمسة عشر عاماًحتى إنه أحياناً كان يضطر إلى القيام بالكثير من أعمال المنزل بنفسه، ومع تكتّمه التّام عن حياته المهنية وانعزاله الدائم وهو منصَبٌّ على أبحاثه، فقدَت أسرته الكثير من تفاصيل حياته حتى إنها تكاد تكون جاهلةً بطباعه، وقد حدثته

زوجتـه ذات ليلـة فـي هـذا الأمـر فأجابهـا بشـرودٍ:

ـ لا أريـد أن يستخدمَكم أحـدٌ للضغـط علـيَّ يومـاً، لا أريـد أن تكونـوا نقطـة ضعفـي.

تلـك الإجابـة التـي جعلَـتْ زوجتـه فـي قلـقٍ دائـمٍ تنتظـر جـرس الإنـذار فـي أيّ وقـتٍ، أمّـا هـو فـكان يخشـى ألَّا يـدقَّ الجـرس مـن الأسـاس.

****

(٢)

عندما دقَّت الساعة التاسعة من صباح اليوم الأوّل في العام الدراسي الجديد توافد طلاب الفرقة الأولى بكلية الآداب جامعة القاهرة داخل المدرج الكبير حتى امتلأ عن آخره، بالكاد استطاع الدكتور «عاصم أبوالمجد» الدخول إلى قاعة المحاضرات، وضع الحقيبة على مكتبه المواجه للطلاب، ثمَّ ابتسم وهو يعدل نظارته، وقد حّدث نفسه بسخريةٍ قائلاً:

- لابأسَ، فقط بعد عدة أيام سنبحث عن طلابٍ للمحاضرة.

من واقع خبرته التي تخطَّتْ عشرة أعوام في العمل بالجامعة يعلم جيداً أنّ َطلاب الفرقة الأولى تبهرهم فكرة الجلوس في المحاضرة والالتزام بالحضور، ثم بعد ذلك تخطفهم الحياة بوهجها للابتعاد عن الدراسة واستبدالها

بكافتيريا الجامعة، كما يعلم أيضا أنَّ الترياق الوحيد لهذه الحالة هو أن يزرع الأستاذ في طلابه حبَّ المادة والاستمتاع بوقتها، وقد نجحَ في ذلك كثيراً.

ضبط رابطة عنقه وهو يتفقّد الوجوه ليعلم مِن أيّ نقطة يبدأ، تلك هي مهمته؛ فقد امتاز دائماً بالفراسة وحسن قراءته للوجوه، وكعادة الأيّام الأولى من الدراسة رأى الشغف و الحماسة تعلو وجوه الطلاب، فابتسم قائلاً بمرحٍ لا يتماشَى مع هيئته الكلاسيكية وانطوائيته العجيبة.

- أبنائي وبناتي، أهلاً ومرحباً بكم في محاضرة من العالم الآخر.

توهَّجت عيون الجميع بشغفٍ منقطع النظير فعلم أنّه على وشك أن يصيب الهدف، فتابع.

- نعَم،إنكَ وحدك مَن تستطيع خلق عالم آخر.

صمت قليلاً،ثم تابع:

- إذا أردتَ تغيير هذا العالم، فإنَّ عليك أن تغيّر منظورك

لـه، هـل جرَّبـتَ يومـاً أن تمـارس الجنون بشكلٍ علنيٍّ؟

ابتسـم فـي نفسـه مـن رؤيتـه للأفـواه الفاغـرة والعيـون التـي تحملـق فيـه بشـكٍّ.

- إنَّ العالـم بطبيعتـه مجنـونٌ منتظـمٌ، يمـارس جنونـه بأوقـاتٍ وسماتٍ محـددة، ومقابل كلّ جنـون ثمَّـة جنـونٌ مسـاوٍ ومعاكـسٌ.

مـال البعـض للأمـام وأعينهـم تنطـق بالضجـة التـي تعصـف بعقولهم، سـار دكتـور «أبوالمجد» بيـن المقاعد التي يتـراصّ عليهـا الطـلاب، حتـى وقـف بجـوار فتـاةٍ شـقراء، ترتـدي ثيابـاً لا تفرقهـا عـن الشـبان، نظـر إليهـا متفحّصـاً هيئتهـا وبداخلـه اشـمئزاز قـويّ مـن العلكـة التـي تعتصرهـا بيـن فكّيهـا، لكنـه بـدلاً مـن أن يوبّخهـا ويفـرغ مـا بداخلـه مـن ناحيتهـا، ابتسـم لهـا بلطـفٍ مناقـضٍ لرغبتـه الداخليـة، ثـمّ قـال بصـوتٍ بـدأ منخفضـاً ثـم ارتفـع دون تمهيـدٍ:

- لـو نظـرتُ إليـك علـى هيئتـكِ وأفعالـكِ لـوددتُ لـو أنّنـي ألقيـتُ بـكِ خـارج المحاضـرة فـي الحـال.

هدأتْ نبرته وهو يتابع بابتسامةٍ عذبةٍ ويتنقل بعينيه بين طلابه الذي يحيطون به من كلّ مكانٍ:

- لكنني في داخلي أودّ النظر إليكِ بطريقةٍ مختلفةٍ، فهل تعتقدون أنَّ ذلك قد يغيّر منها بالفعل؟

علَتِ البلاهة وجوه الجميع، لكنَّ أحدهم كان يفهم جيداً ما يعنيه دكتور « أبوالمجد»، لكن الحاجة تدعو إلى عدم حديثه وإلّا خرب كلّ شيءٍ.

****

(٣)

في مدينة تلّ أبيب الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط اجتمع عددٌ من كبار رجال المجتمع الإسرائيلي مابين إعلاميّين ورجال السياسة والحاخام الأكبر في المدينة، كان الطقس سيئاً للغاية مع هطول الأمطار على المدينة التي يتسبّب في نزولها قربها من الساحل، وهي تتابع الهطول بداية من هذا الشهر ـ شهر أكتوبر ـ إلى نهاية شهر إبريل، تراصَّت الأكواب الساخنة على الطاولة المستديرة التي يلتفّ حولها السادة، يتبادلون النظرات في صمتٍ مطبقٍ، حتى فرغ النادل من وضع المشروبات الساخنة أمامهم، كلٌّ حسب طلبه.

أمرَه أحدهم بإغلاق الباب وراءه وإبلاغ السكرتيرة بعدم السماح لأيّ شخصٍ كان بقطع حديثهم.

كانت الأوامر صارمة فأومأ النادل برأسه وانصرف، فهو يعلم جيداً أهمية هذا الاجتماع الذي كثيراً ما ينعقد في هذا المكان خاصة في الآونة الأخيرة، وإن لم يكن يعرف ما يدور به، لكن خطورة الاجتماع تكمن في خطورة أصحابه.

تنهّد أحدهم وهو يخلع قبّعته السوداء ويضعها أمامه على الطاولة، ثمّ نظر إليهم بجدّيةٍ أرعبتهم:

- لقد بدأ يتحرك بالفعل، لقد أوشكَتْ كلّ مخططاتنا على الانهيار.

ابتسم الحاخام المقابل له، ثم قال بهدوءٍ تامٍّ لا يتماشى مع جوّ التوتر الذي يسود الغرفة:

- لعلّ بدايته تسهل علينا الأمور أكثر.

صمت قليلاً وهو يتلذّذ برؤية الفضول بأعينهم، ثم ارتشف جرعةً من قهوته الساخنة، ثم أردف قائلاً:

- هو بدأ لكنه لن ينتهي.

****

(٤)

«ذاكر شو كنت تقلي مهما يصير ..انتظريني وضلك صلي، الله كبير .. من يومها شو عاد صار .. ع مدى ألف نهار .. ما صار شي كبير ..كل اللي صار وبعده بيصير ...الله كبير ...»

ارتشف جرعةً قليلةً من فنجان قهوته الساخنة التي لا يمكن أن يتخلّى عنها في أيّ صباحٍ، قام بخطواتٍ بطيئةٍ وهو يعدل من روبه الشتوي ذات اللون البني، توقف بجوار الجرامافون القديم الذي ورثه من أبيه ثم أغلقه فاختفى صوت فيروز، التقط هاتفه وعاد للجلوس على كرسيّه بجوار مائدة الطعام، قرب الهاتف من وجهه وهو يعدل نظارته الطبية ذات العدسات المربعة الكبيرة، عبث بأزرار الهاتف قيلاً ثمّ وضعَه على أذنه اليمنى، حتى أتاه الردّ من الجهة المقابلة:

- ألو.

- نعَم يا دكتور « أبوالمجد» ، لا أعلم مَن منّا المريض؟!، أنا طريح الفراش منذ يومين، وها أنا أتّصل بك الآن لأطمئنَّ عليك.

ظهرَت ابتسامه خفيفة في نبرة الدكتور» أبوالمجد» على الجهة المقابلة، وهو يقول:

- حقاً لك أن تغضب يا دكتور « عز»، لكن ثق بأنَّ هذا الغضب سيتبدّد تماماً حينما أعوّض لكَ هذه المكالمة بزيارةٍ إلى منزلك اليوم بعد الانتهاء من محاضراتي.

- ماذا؟!، مَن معي؟ ! هل قلتَ للتوّ إنّكَ ستأتي إلى منزلي، أم أنَّ أعراض المرض تفتك بي؟!.

- أنا قلتُ سآتي، لكن إن أردت أن تنهب نيّتي أدراج الرياح فلك ذلك.

- لا، لا، سأنتظرك يا رجل، لا تتأخر عليَّ، مع السلامة.

أغلق دكتور «أبو المجد» الهاتف وعلى شفتيه ابتسامةٌ

خفيفةٌ قبل أن تكتسي ملامحه بالغضب وهو يلتفت إلى الطالب الذي حضر إلى مكتبة قبل مكالمة دكتور « عز» مباشرة.

****

(٥)

يحكي لنا الفيلسوف «فونتيل» قصة الوردة التي كانتْ تعتقد أنَّ بستاني الحديقة دائمٌ إلى الأبد، لماذا؟؛ لأنها ـ في حدود ذاكرة الوردة ـ لم تشاهد أبداً أحداً غيره في الحديقة، إلا أنَّ التجربة تعلّمنا أنَّ البستانيّ يفنى، وكذلك تفنى الورود، فهذا حال قلوبنا تتعلّق بأشياء وترفض فكرة البُعد عنها، لكنها لا تعلم أنّ البُعد أمرٌ حتميّ، وربّما أصبح الأمر يسيراً إذا أمنتَ بأنَّ البستاني ماهو إلا راعٍ وأنَّ إزهارها يعود في الأساس إلى عوامل الطبيعة قبل عناية البستاني.

مسحَتْ دموعها بكفّها الرقيق وهي تحتضن الورقة بكفها الأخرى وتعتصرها بين أناملها، التهب خدّاها من أثر الدموع، كانت كلمات والدها التي كتبها لها منذ ثلاثة أشهرٍ قبل أن ينزل إلى عمله ولم يعد، بل بعث بناقوس

الحزن يزلزل كيانها بخبر وفاته إثر حادثٍ أليمٍ.

منذ ذلك اليوم وهي تحتضن رسالته بين يديها كلَّما خلا البيت من أخيها الوحيد، كانتْ تريد له أن يتجاوز هذه المحنة في أسرع وقتٍ حتى يعود إلى دراسته الجامعية ويكمل الطريق الذي رسمَه له والده، أسرعتْ بإخفاء الورقة تحت وسادتها ومسحَتْ دموعها ثمَّ هبَّتْ واقفةًعندما سمعت باب الشقة يفتح وخطوات أخيها تقترب، لكنَّه بدلاً من أن يأتي إليها، ذهب إلى غرفته وأغلق بابها خلفه، توجَّهتْ نحو الغرفة ودقَّت الباب للمرة الأولى فلم يجب، عاودَت الكَرّة فأتاها ردّه بجملةٍ مقتضبةٍ:

- لن آكل الآنَ.

انصرفت بهدوءٍ وهي تتعجّب من حال أخيها الذي انقلب رأساً على عقبٍ دون سببٍ، جلست على الأريكة في الصالة وهي تضمّ ركبتيها إلى صدرها، شردَتْ قليلاً ثم أفلتت منها ابتسامة رغماً عنها وهي تتذكر ذلك الشخص الذي قابلته منذ عدّة أيام بالمكتبة، حينما ذهبتْ لشراء

أحد الكتب، كان رجلاً متوسط القامة، أشيب الشعر، لكنّه ربما كان أقلّ من والدها بالعمر، مهندم الثياب، يقف بجوار القسم الخاص بالكتب الفلسفية.

احتارت بين عناوين الكتب، ولم تجد ما تبحث عنه، دارت بعينها في المكان لكنّها لم تجد مَن يساعدها، اقتربتْ منه قليلاً وهي تقول بصوتٍ أقرب للهمس:

- سيدي، هل لي بمساعدةٍ من فضلك؟.

التفت إليها، وأومأ برأسه سامحاً لها بعرض طلبها.

خفضَتْ عينيها عن النظر إليه وهي تقول:

- أودّ شراء كتابٍ فلسفيٍّ لكنني لا أعلم عن الفلسفة سوى القليل، كما أنّني لا أحسن فهمها بشكلٍ سريعٍ.
- سأساعدكَ، لكن أخبريني أولاً، إن كنتِ لا تهتمين بالفلسفة كثيراً كما يبدو، فلماذا تقتنين كتاباً فيها؟، هل هي دراستكِ؟
- كلا، لكن أبي كان يحبّها كثيراً، وكان يودّ لو أنّني

أرث منه شغفه بها.

- الأمر كذلك إذنْ، حسناً.

مرّر يديه على أحد الأرفف ثم أخرج من بينها كتاباً، وأعطاه لها.

- المبادئ الأساسية للفلسفة، كتاب مبسط، سيعينك على فهم الفلسفة بالتأكيد، أنا آتي إلى هنا دوماً، يمكنني أن أشرحَ لك لاحقاً ما تعسّر عليكِ فهمه، انظري إلى المقولة على ظهر الغلاف.

قلّبت الكتاب وقرأت بعينها سريعاً:

الفلسفة هي أن ترى العالم بعيونٍ جديدةٍ، أن تكتشف الكذب وتقهره، وأن تعرف أنَّ الفلسفة من الممكن أن تكون جسر البسطاء إلى الحقيقة.

هذا الكتاب يتساءل معك: هل المادة سابقة للشعور؟، وهل الأفكار هي انعكاسٌ للحياة المادية والاقتصاد والمجتمع؟

هـل التناقـض هـو محـرّك الظواهـر؟، ومـا المنتـج الميتافيزيقـي المثالـي الـذي يمنـع أيّ إنسـانٍ مـن النجـاح والتقـدم فـي الحيـاة؟

رفعـت عينيهـا وهمَّـتْ أن تتكلـم فوجدتـه يبتعـد عنهـا بكثيـرٍ، فقالـتْ بهمـس وعيناهـا معلقتـان بـه: أشـعر أنّنـي سـمعتُ هـذا مـن قبـل.

****

(٦)

بعد الانتهاء من اليوم الدراسيّ خرج دكتور «أبو المجد» من الجامعة متوجهاً نحو منزل صديقه دكتور «عز».

في العادة لم تكن علاقة دكتور «أبوالمجد» قويّةً بزملائه بالجامعة ولا خارجها إن صحّ التعبير، لكن علاقته بالدكتور «عزّ» مختلفة نوعاً ما عن غيرها، ربّما لأنّ كليهما من الطراز القديم، وكليهما عاشقان للعزلة والغموض، نشأتْ بينهما صداقةٌ منذ ثلاثة أعوام قرّبتهما بعض الشيء، عندما أصيب دكتور «أبوالمجد» بنبحةٍ صدريةٍ بعد الانتهاء من إحدى محاضراته، وقتها لم يهتمّ أحدٌ بالعناية به سوى الدكتور «عز» الذي كان يكنّ له احتراماً كبيراً لعلمه وشخصيته، كما أنّه لم يكن يجد في شخصيته ما لا يألفه، ويبدو أنَّ الدكتور «أبوالمجد» على الرّغم من انطوائيّته وحذره إلا أنَّ الغريزة الإنسانية

سيطرتْ عليه بشكلٍ أو بآخر فتجاوب مع دكتور «عز» ولكنْ ثمّة حدودٌ تفصل بينهما.

أوقف سيارته الصغيرة بعيداً عن منزل دكتور «عز»، ثمّ ترجّل منها وهو يسير في الشارع الهادئ، وفجأة أسرع الخطى نحو المنزل حتى ضاقت أنفاسه، يشدّ على سترته كأنّه يحتمي بها، تفصّد جبينه عرقاً، وشعر بوخزٍ في ركبتيه، لكنه واصل طريقه مهرولاً حتى وصل إلى باب المنزل، دقّ الجرس أكثر من مرة دون هوادة، فخرج إليه دكتور «عز» وهو قلقٌ ومتعبٌ في آنٍ واحدٍ، فتح الباب فتفاجأ بصديقه يتصبّب العرق على جبينه رغم انخفاض درجة الحرارة، أشار إليه بالدخول أولاً ثم أغلق الباب خلفه مسرعاً، ودلف خلف صاحبه، يحثّه على الجلوس.

- ماذا بكَ؟

- لا شيء، فقط كنت أخشى ألّا أجدكَ على قيد الحياة، ولكنك أصحّ منّي يارجل.

قالها وهو يبتسم له مازحاً.

- حقاً؟!

إذا كان الأمر كذلك فأنت تستحق كوباً من القهوة بالتأكيد، وما أدراك بقهوة الرجال؟!

- يبدو أنّها ستكون الأخيرة لي.

قهقه عالياً ثم قال وهو ينصرف نحو مطبخه:

- كفاكَ ما عشتَه يا دكتور «أبو المجد».

دقائق قليلة وعاد إلى صديقه يحمل كوبين من القهوة، وضعهما على منضدةٍ صغيرةٍ، ثم وقف بجواره وهو يتطلع إلى مكتبته التي كانت تحتلّ الحائط بأكمله، قلَّد صاحبه في وقفته فعقد ذراعيه خلف ظهره وساد الصمت بينهما للحظاتٍ حتى قاطعه دكتور أبو المجد قائلاً وعيناه ما زالتا تتفقدان الكتب:

- أهذه هي زوجتك التي زهدتَ الدنيا من أجلها ؟!

ابتسم بمرارةٍ ثم قال:

- لا، بل هي مَن عوّضتني عن تلك التي زهدت الحياة من أجلها.

نظر إليه بلطفٍ وضاقت عيناه البنّيّتان من خلف نظارته وقال متسائلاً:

- قلتَ لي إنّك لم تتزوج.

- حقاً.

- أكانتْ لك حبيبةٌ؟

تنهد بعمقٍ ثم قال:

- نعم، وأنا ابن خمسة وعشرين عاماً، هي مَن علّمتني كيف أكون قارئاً نهماً، ثم أصبحتُ من بعدها حياً، وهي مَن زوّجتني بهذه المكتبة قبل أن أفقدها، وكالعادة يا صديقي، فالكتب مؤنّثة تأبى التّعدد.

ابتسم له بلطفٍ ثم عادا إلى مجلسهما، يرتشف كلٌّ منهما قهوته بشرودٍ وقد حلّ الصمت بينهما حتى طرده دكتور «عز» بسؤاله المفاجئ:

- مَن الذي كان يلحقك؟

صمت قليلاً ثم أجاب بحيرةٍ:

- لا أعلم مَن تحديداً، لكنني أثق أنَّ أحدهم تتبَّعني إلى هنا، ربّما لم يعد هناك الكثير من الوقت!

****

(٧)

بـدأ دكتـور «أبـو المجـد» محاضرتـه وهـو يتحـدّث عـن وحـدة الأضـداد قائـلاً:

- لا يوجـد تناقـض إلا إذا وجـد صـراعٌ بيـن قوتيـن علـى الأقـل، فالتناقـض إذن يشـمل بالضـرورة طرفيـن متعارضيـن؛ فهـو وحـدة الضديـن، هـذه هـي الخاصيـة الثالثـة للتناقـض، فلندرسـها عـن كثـبٍ.

ضجـت القاعـة بالمناقشـات والجـدل حـول وحـدة الأضـداد، كان دكتـور أبوالمجـد سـعيداً بتفاعـل الطلاب مـع المحاضرة، يبـدو أنَّـه قـد حصـل علـى مبتغـاه بجـذب روح طلابـه إلـى المـادة (علـم النفـس)، شـرد للحظـةٍ يفكـر فيمـا إذا كانـتْ أبحاثـه ونظرياتـه علـى سـلوك المجتمـع سـتخرج للنـور أم أنـه سـيفقد هـذا الحلـم فـي سـبيل وصولـه إلـى هدفـه الأكبـر؟

أفاق من شروده على صوت أحد الطلاب وهو يصرخ في زملائه:

- كفاكم جدال.

التفت إليه زملاؤه باندهاشٍ من صوته الذي ارتفع مرة واحدة، وفي المقابل كانت ابتسامة تزين شفتي الدكتور «أبو المجد» قبل أن يردف قائلاً:

الأضداد تتصارع، ولكنها لا تنفصل بعضها عن بعضٍ، أمّا الجدل، فلا يفصل أبداً بين الأضداد، بل يضعها في وحدتها التي لا تنفصم.

****

(٨)

جلس دكتور «أبو المجد» خلف مكتبه في الجامعة يتطلع إلى كومةٍ من الأوراق أمامه، تنحنح شابٌّ متوسط القامة نحيف البدن ذو شعرٍ أسود كثيف، وهو يقف بالقرب من مكتبه، رفع عينه عن الأوراق وهو ينظر للشاب باندهاشٍ، ثم أخفى الأوراق في درج مكتبه بارتباكٍ قبل أن يقف مواجهاً للشاب، وهو يتحدث بعصبيةٍ فشل في إخفائها.

- كيف لكَ أن تدخل مكتبي دون استئذان؟!

كاد الشاب ينطق فقاطعه قائلاً وهو يشير إليه بسبابته محذراً:

- لقد عفوتُ عنكَ حينما دلفت إلى مكتبي بنفس الطريقة بالأمس ولم تنصرف رغم أنّك رأيتني أتحدث على الهاتف، واليوم تجاوزت عن ارتفاع صوتك على

زملائك في وجودي بالمحاضرة، لكن هذا الفعل منك اليوم أيضاً يدلّ على أنكَ شابٌّ غير مهذب، وأنَّ الرأفة معكَ ليست صحيحة على الإطلاق.

نطق الشاب مدافعاً عن نفسه:

- سيدي، لم أقصد إزعاجكَ أبداً، جئتُ لأعتذر عمَّا بدر مني بالمحاضرة، لكني أكره الجدال، وهذا سبب انزعاجي، ولم أستطع أن أتمالك أعصابي.

هدأ الدكتور قليلاً وعاد للجلوس خلف مكتبه وهو ينظر إلى الشاب، صمت قليلاً ثم بدأ بينهما حوارٌ طويلٌ لأوّل مرةٍ، استمرّ الحوار قرابة الساعة وكلاهما يتبادلان الأسئلة، لمح في عين الشاب شغفاً كبيراً، كانت هناك جملةٌ تستقرّ على أعتاب شفتيه منعها من الخروج جرس هاتف الدكتور «أبوالمجد» وعندما شرع في الردّ كاد الطالب يغادر فاستبقاه بنظرةٍ من عينيه يسمح له بالجلوس.

- ألو ... مرحباً بكَ يا دكتور «عز»، كيف حالكَ اليوم؟

- .....

- لا عليكَ، فقط حافظْ على ما أعطيتك إيّاه، أنتَ تعلم أهمّيته عندي جيداً.

- أعلم ذلك، ولولا ذلك ما ائتمنتكَ، مع السّلامة.

التفت إلى الشابّ وهو يلملم أوراقه:

- حسناً، عليَّ الانصراف الآن، سنكمل حديثنا لاحقاً يا... ما اسمكَ؟

- اسمي «نضال» سيّدي.

- نضال! ما أروع اسمكَ!، فلنلتقِ لاحقاً يا نضال، سررتُ بكَ.

- وأنا أيضاً سيدي، لو أنكَ تسمح لي بأن أكون في خدمتك متى احتجتَ إلى أيّ مساعدة.

- أشكركَ كثيراً يا نضال.

صمت قليلاً ثم قال:

- هل تحسن القيادة؟

- أجل سيّدي، بالطبع .

- إذنْ فما رأيكَ لو ترافقني الآن ، فأنا أودّ الذهاب إلى المكتبة.

- هذا يسعدني كثيراً سيدي.

****

(٩)

انطلقا بالسيارة في شوارع المحروسة، استقرّ «نضال» خلف عجلة القيادة وبجواره على الكرسي الآخر يستقرّ دكتور أبو المجد يلتهم بعينيه سطور كتابٍ صغيرٍ ذي أوراقٍ صفراء وحبر باهت، ظلّ يطالع الكتاب حتى وصلا أمام المكتبة، أغلق الكتاب، وترجّل من السيارة على مهلٍ، في حين ذهب نضال يبحث عن مكانٍ مناسبٍ يصف فيه السيارة، دلف دكتور أبو المجد إلى المكتبة، سار بداخلها حتى استقرّ أمام أحد الأرفف، وظلّ يمشط الكتب بعينيه ويمرّر أصابعه عليها إلى أن استوقفه صوتٌ أنثويٌّ فعدل نظارته وهو ينظر باتجاه تلك الفتاة صاحبة الشعر الأسود الطويل، ظلّ ينظر إليها لثوانٍ وهو يحاول أن يتنكّر أين رأى هذا الوجه الأبيض صاحب الملامح الرقيقة والعيون النابلة إلى أن أنقذته هي من

كثرة التفكير، وهي تقول بصوتٍ هادئٍ:

- ألا تتذكرني؟، أنا سمر التي قابلتكَ منذ حوالي شهر تقريباً هنا في المكتبة، حينما طلبت منكَ اختيار كتابٍ في الفلسفة وقد اخترتَ لي كتاب «المبادئ الأولى للفلسفة».

ارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ لطيفةٌ ثم قال باهتمامٍ:

- وكيف وجدتِ الكتاب؟

- جيّد جداً، لكنّي... لكنّي لم أستطع استيعابه كله، هناك بعض الأمور لم أفهمها جيّداً.

- هذا أمرٌ طبيعيٌّ، لا بأس.

أخرجتْ ورقةً مطويةً، وأعطته إيّاها.

- هذه هي النقاط التي استعصى عليَّ فهمها، دائماً ما ترافقني كلَّما آتي إلى هنا.

وضع الورقة في جيبه دون أن يقرأها وهو يقول:

- سأنظر فيها وأبحث عن طريقةٍ يسيرةٍ لشرحها.

شكرَتْه بإيماءةٍ من رأسها وابتسامة خفيفة ثم انصرفَتْ وعاد هو يتابع بحثه بين عناوين الكتب.

*****

كان يقف خلف أرفف المكتبة مختبئاً خلف الكتب يتابع بعينيه ذلك الأستاذ الجامعيّ وهو يتحدث بحماسٍ وصوتٍ منخفضٍ مع فتاةٍ لم يستطع أن يتبيّن ملامحها جيداً، ثم رآها وهي تعطي له ورقةً مطويةً وضعها هو في جيبه دون أن يفتحها، لا بدّ أنه يعلم ما بها.

تحدّث إليها قليلاً ثم انصرفَتْ هي من الجهة الأخرى دون أن يستطيع هو أن يتبيّن كُنهها.

– ألو.. اتبع الفتاة التي خرجَتْ من المكتبة الآن، لديها الكثير.

*****

ظهرَتْ علامات الانتصار على وجه دكتور «أبو المجد» وهو يُخرج مجلداً ضخماً من بين الكتب وأخذ يقلّب بين صفحاته وعيناه تتسارعان على السطور وابتسامة ظفرٍ تتناوب على وجهه مع دفعة حماسٍ للحظةٍ شعر نضال

وهو يقف أمامه أنَّ هذا الرجل يعرف محتوى الكتاب جيداً ولكنه مع ذلك يفاجأ بما يقرؤه.

- دكتور، هل انتهيتَ؟

قالها نضال بحذرٍ وهو يختلس النظر إلى المجلد الذي يتربع بين أحضان ذلك الأستاذ الجامعي الذي يمسك به كأنّه مولوده الأول.

رفع دكتور أبو المجد نظره إلى نضال وهو يغلق الكتاب، ثمّ قال بنبرةٍ أثارت حيرة « نضال «:

- ليس بعد، لكنّي أعدكَ أننا أوشكنا على الانتهاء، جميعنا سننتهي قريباً.

****

(١٠)

ظلّ «نضال» شارد الذهن طوال طريق العودة من المكتبة وهو يصطحب دكتور «أبو المجد»، لم يفهم أيّ شيءٍ من كلام أستاذه المقتضب، يختلس النظرات بين الحين والآخر إلى ذلك الرجل الذي أرهب الجامعة بأسرها، ذلك الرجل الذي يحتاج إلى تجمع كلّ أجهزة المخابرات حول العالم كي يستطيعوا حلّ شفراته، هكذا سمع من صديقه الذي يكبره بعامين عندما سأله عن دكتور «أبوالمجد» وقتها فقال له بعد تنهيدةٍ كبيرةٍ:

- إنّه مثل أبي الهول لا يكشف أسراره دفعة واحدة.

شعر بقشعريرةٍ تسري في أطرافه أخذَتْ تزداد حتى أصبحت كتيار كهربائي يجتاح جميع خلايا بدنه كلّما سأل عنه طالب أو تحدّث عنه أستاذ، الرجل الذي أغلق

على نفسه سُرادق الحيطة والحذر وبنى حوله حصناً من الرهبة، يتفصّد جبين الواقف أمامه عرقاً في أعتى أيام الشتاء، هو الآن يجلس بجواره في سيارته، صحيحٌ أنّه في بعض الأوقات يبدو أباً حنوناً، لكنَّ عينيه تطلان عليك من خلف زجاج نظارته تخبرك بأنه عاصفةٌ تتلاعب بأعصاب من أمامها وتجبره على الهدوء، ومن ثم على حين غفلةٍ تنقلب الأمور بينكم لحربٍ نوويةٍ لا تحلم أن تظفر فيها بدقيقة انتصار واحدة.

- انعطفْ يميناً.

قالها دكتور أبو المجد فجأة منتشلاً « نضال» من بحر شروده، أومأ برأسه ثمّ أدار عجلة القيادة نحو اليمين وتوقّف.

- لماذا توقفتَ؟

سأله دكتور أبو المجد بنبرةٍ هادئةٍ، فأجاب وهو يتنقّل بعينيه بين دكتور «أبو المجد» وبين الخارج:

- أليس من المفروض أن أترك حضرتكَ الآن كي تعود

إلى منزلك؟

- لا بأس، يمكنك أن توصلني إلى المنزل إن كان هذا لا يزعجكَ.

- بالطبع.

*****

أوقف السيارة أمام المنزل فترجّل منها دكتور أبو المجد ووقف على مقربةٍ منها، كانت أمارات الصدمة تعلو وجهه وهو ينظر في الجهة الأخرى، انتشله من هذه الحالة صوت « نضال « وهو يمدّ يده بالمفاتيح:

- هل تريد مني شيئاً آخر سيدي؟

بتردّد وهو مازال شارداً:

- ل.. لا ... يمكنك الذهاب.

كانت ابتسامة المرأة الشقراء ذات الملامح الغربية تتّسع وهي ترى أثر الصدمة بادياً على وجه دكتور «أبوالمجد» حتى تجمّد في مكانه ولم يستطع الحراك، فبدأت هي وتقدّمت نحوه بخطواتٍ واثقةٍ وقالت بلهجةٍ إنكليزية

وهـي مازالـت محتفظـة بتلـك الابتسـامة التـي كانَـتْ تُشـعر دكتـور «أبـو المجـد» بغليـان دمائـه:

- ما زلتَ تتنكرني، أليس كذلك؟

علـى الرغـم مـن أنَّ وجـه المـرأة قـد خطَّتْـه بعـض التجاعيد الخفيفـة، والزمـن قـد أخفـى الكثيـر مـن جمالهـا إلا أنَّ» أبوالمجـد « اسـتطاع أن يتعـرف عليهـا منـذ اللحظـة الأولـى، تلـك العينـان اللتـان تشـعّان خبثـاً ودهـاءً، «صـوفيـا» تلـك المـرأة التـي عـزف لهـا أجمـل الألحـان وقضـى برفقتهـا أجمـل أيـام حياتـه، حياتـه التـي حوّلتهـا لكابـوس مضـنٍ وعبثَـتْ بمشـاعره ووطنيتـه، كيـف ينسـى مَـن حطمَـتْ بـرج أحلامـه وأعادَتـه إلـى بلـده محطـم الفـؤاد مسـتنفذ الطاقـة؟!

جنبهـا مـن ذراعهـا بقـوةٍ وهـو يقـول لهـا بحنـقٍ وشـرارات الغضـب تتطايـر مـن عينيـه:

- ما الذي أتى بكَ بعد كل هذه السنوات؟

- اهـدأ قيـلا يـا دكتـور عاصـم، فالأمـر يسيرٌ للغايـة، طبعـاً إذا أردتَـه أنـتَ كذلـك.

أرخى قبضته التي كانت تعتصر ذراعها، وابتلع ريقه ثم قال:

- ماذا تقصدينَ؟

- حسناً،الآن يمكننا الحديث.

- .....

- أريد مخططكَ التي تنوي به أن تقلب العالم رأساً على عقبٍ.

- عن أيّ مخططٍ تتحدثين؟!

- حقاً، دعنا نتحدّث بشكلٍ أوضح، ذلك المخطط الذي دبرته مستعيناً بالأوراق التي أخذتُ صورةً منها من منزلي ببريطانيا.

- أنا لا أعلم شيئاً عن كلّ هذا الهراء.

- هراء؟!

أمامك أسبوعٌ واحدٌ فقط، فكّر جيداً قبل أن تجيب، فأنا واثقةٌ من أنّه لا يعجبكَ أن يعلم العالم حقيقة ابنك

الصهيونـي كمـا تسمّيه.

- ماذا؟!

- نعَم، مازلتُ أحتفظ بـه شاباً ناضجاً يكره أباه العربي اللعين، لـن يدخـر جهداً كـي يفضحكَ أمـام العالـم كله.

احتلّـت الصدمـة كلّ خلجـةٍ مـن خلجاتـه وشـعر بـأنَّ الأرض تـدور بـه فاسـتند بيـده علـى سـيارته، تابعَـتْ هـي فـي ابتسـامةٍ صفـراء وهـي تبتعـد عنـه:

- فكّر جيداً، أمامكَ أسبوعٌ واحدٌ فقط.

*****

دلـف «نضـال» إلـى منزلـه وقـد بلـغ التوتّـر منـه مبلغـه بعدمـا أرهقـه الانتظـار أمـام شـقّته وهـو يـدقّ الجـرس ولا مجيـب، ليـس مـن عـادة أختـه أن تبقـى خـارج المنـزل إلـى هـذا الوقت المتأخـر مـن الليـل، كسر بـاب الشقة بعدمـا فشل فـي العثـور علـى مفتاحـه، توقَـف للحظـةٍ يستوعب المشـهد حولـه، كان الأثـا ث كلـه محطّمـاً متناثراً حولـه فـي كلّ مكانٍ،

ظل يصرخ باسم أخته وهو يبحث عنها في جميع الغرف فلم يعثر عليها، حُبسَتْ أنفاسه وتصارعَتْ دقات قلبه، كان المشهد مهيباً، صمتٌ تامٌّ، دقات قلبه تعلو وتزداد سرعةً كأنّها في سباقٍ، دقات عقارب الساعة تثير شحنة التوتر بداخله، تصبّب العرق على جبينه، رائحة الموت تغزو أنفه، نقاط دماء بالقرب من غرفة والده التي لم تُفتَحْ منذ وفاته.

لا أريد أن يتكرّر ذلك المشهد ثانياً.

حادث سيرٍ يودي بحياة العالم الكبير «سالم عبد الرحمن»، هل كان مجرّد حادثٍ؟!

جثة أبيه بالمشرحة، نحيب أخته، كتلة الشرّ تحيط به، تحاصره، تجبره على الإذعان لها، لا يستطع أن ينفّذ ما يطلبونه، يرفض، يهدّدونه، يضغطون عليه أكثر، أخته هي الوحيدة المتبقية من أسرته، لا يريد أن تتركه هي الأخرى، يبتلع ريقه بصعوبةٍ وهو يقترب ببطءٍ من غرفة المكتب، يريد أن يصرخ، لا يستطيع التنفس، يشعر

برئتيه تحترقان، قلبه يخفق، يبتعد صوت دقات الساعة ويحل محلّها صوتٌ جديدٌ، دقّات قلبه كقنبلة موقوتة، تجمّعت الدموع بمقلتيه، تجمّد جسده على باب الغرفة كتمثالٍ حجريٍّ، انفجر شلال الدموع من عينيه متدفقاً كسيلٍ يغسله من جميع آثامه التي لم يقترفها، كميّتٍ يُعاقب على موته!

خرّ راكعاً على ركبتيه بجوار جثتها، تحرّر صوته فصرخ باسمها صرخةً أرعبَت الجان: «سمـــر».

****

(١١)

قاعة متوسطة الحجم تحيط بها أسوارٌعاليةٌ يتوسط السور بابٌ فولاذيّ ضخم لا يسمح بالعبور إلا ببصمة اليد، عبر شابٌّ في نهاية العقد الثالث من عمره، ذو شعر أسود،وعينين ضيقتين تنمَّان عن حدةٍ وذكاءٍ زاد بريقهما زجاج نظارته الطبية الرقيقة، كان من ذلك النوع الذي يخدعكَ بوسامته في اللحظة الأولى حتى تظنَّه ذا روحٍ هادئةٍ وذكاء محدود، ولكن إذا ما اقتربتَ منه أكثر فستجد روحه ثائرة، وعقله لا يكفّ عن التفكير.

عبر الشابُّ البوابة بعدما طنَّتْ بطنين خفيف عقب تسجيل بصمة يده، وسار بخطواتٍ واسعة عبر ممرٍّ ضيقٍ وهو يعدل من رابطة عنقه الحمراء، شارد الذهن يفكر في المكالمة التي تلقاها منذ أقلّ من ساعةٍ، كان ينتظر هذه اللحظة منذ عدة أعوام، ولكنه لم يكن يعلم

أنها ستكون صعبةً إلى هذا الحد.

انتهى الممرّ وتوقف أمام بابٍ فولاذيٍّ؛ فشعر بقلبه يخفق بشدةٍ، وضع يده على قلبه كأنما يستجديه كي يهدأ، زفر بشدةٍ، ثم طبع بصمة يده على شاشةٍ صغيرةٍ على الحائط يمين الباب، أصدرت الشاشة ضوءاً أخضرتبعتْه كتابة سوداء «أدخل الرمز»، طبع عدة أحرفٍ وأرقامٍ على الشاشة ثم ضغط «تمّ»، أصدرت الشاشة صوت أزيز خفيف وظهر عليها «مراد الحسيني»، فُتح الباب فدلف «مراد» إلى داخل القاعة ثمّ أغلق الباب خلفه، لا يعلم سبب ذلك الشعور بالتّحديد، مزيج من الحماس والاضطراب!

سار بخطواتٍ رتيبةٍ داخل القاعة المتوسطة الحجم، تتوسطها طاولة كبيرة يتجمع حولها عددٌ من الشباب يقتربون منه في العمر، جميعهم يرتدون بنلةً زرقاء ورابطة عنق حمراء، جلس مراد على كرسيٍّ بجوار الطاولة ولم يتبقَّ سوى كرسيين فارغين فقط، بدأ مراد كلامه بلغةٍ عربيةٍ فصحى وهو يتنقل بنظره بين

الحاضرين ليرى أثر كلامه عليهم:

- لقد حان الوقت الذي انتظرناه طويلاً.

صمت قليلاً ثم تابع:

- لقد اتصل بي دكتور عاصم أبو المجد منذ ساعةٍ تقريباً يدعونا للاستعداد، كما قال إنَّ عملية التنفيذ لابدَّ أن تقع جميعها في وقتٍ واحدٍ في مختلف البلدان، خطأ واحد سيكلفنا الكثير.

بدأ الاضطراب يتسلّل إلى ملامح الكثير منهم غير أنَّ واحداً انطلق بحماسٍ وهو يقول بنفس اللغة العربية الفصحى حتى إنّك لا تستطيع أن تميّز جنسيته الحقيقية:

- لقد انتظرنا هذا اليوم طويلاً جداً، طال الوقت لكن الدوافع تزداد يوماً بعد يومٍ، وقد بلغ الماء الزُّبَى.

أذهبت كلماته الاضطراب من قلوب الجميع واشتعل الحماس بداخلهم، فهبَّ أحدُهم واقفاً وهو يقول بابتسامةٍ عريضةٍ:

- سيكون عُرساً عربيًّاً.

*****

انصرف الجميع من القاعة وبقي «مراد» بمفرده ينظر إلى الوجوه على الشاشة أمامه، للحظة تعجّب من كمِّ الكره الذي يحمله بداخله لأناسٍ لا يعرفهم شخصياً!

لماذا دائماً ما يشعر بأنَّ كرههم غريزةٌ فطريةٌ، لا يمكنه التحكم فيها.

عاد بذاكرته لعشر سنواتٍ مضَتْ، وهو في عامه الأخير بالجامعة، حينما طلبه دكتور عاصم أبو المجد - ذلك الرجل الذي يخبِّئ أكثر ممَّا يظهر-، ظلّ مراد طوال أعوامه الأربعة بالجامعة وهو يهاب هذا الرجل ويحبّه في آنٍ واحدٍ.

طرق مراد باب غرفة المكتب الخاصة بدكتور «أبو المجد» في الكلية وهو ينوي أن يطرقه مرةً واحدةً ثم ينصرف على الفور، لكن سمع من خلف الباب صوت دكتور «أبو المجد» يأذن له بالدخول، ابتلع ريقه

بصعوبةٍ وهو يدخل بخطوات مترددة حتى استقرّ بالقرب من مكتب الدكتور وهو يفرك يديه بحركةٍ عصبيةٍ توقف عنها عندما رفع دكتور أبو المجد رأسه إليه.

- اجلس يا مراد.

جلس بتردّدٍ حاول إخفاءه ثم قال:

- أخبرني زميلي أنكَ طلبت رؤيتي.
- هنا صحيحٌ، أنا أعلم جيداً أنكَ طالب نجيب ومتميز في علم النفس والفلسفة و.... وعلوم أخرى.
- هنا بفضل مجهوداتكم.
- اسمع يا «مراد»، أنا ذاهبٌ في المساء إلى ندوةٍ علميةٍ هامةٍ، وأريدك أن تأتي معي.
- هنا شرفٌ لي.

*****

في المساء كان مراد يجلس بجوار دكتور «أبو المجد»

في قاعةٍ ضيقةٍ تجمع عدداً من الشعراء والكتاب وقليل من أساتذة الجامعات، باتت الندوة شعرية حماسية أكثر من اللازم حتى شكَّ مراد في السبب الذي جعل دكتور «أبو المجد» يدعوه لمثل هذا المكان، هل كان متوقعاً أن يجد شيئاً آخر أم أنه فعل ذلك قصداً؟!

عندما تحوّل الكلام عن العدوّ الأول وبدأ الشاعر يلعن إسرائيل وينسب إليها كل قبيحٍ، حينها سُيطر على عقل «مراد» وأخذ يستمع بحماسٍ أكبر.

انتهت الندوة وخرج دكتور أبو المجد بصحبة مراد، وأخذا يبتعدان عن مكان الندوة سيراً على الأقدام.

- ما رأيك بالندوة يا مراد؟

- في الحقيقة ليست لي ميولٌ للشعر العاطفي والغزل، لكني استمتعتُ كثيراً بالشعر الوطني.

- عظيمٌ، لكن هل ذلك يعني أنَّكَ توافق الشاعر في عدائه؟

- لقد نشأنا جميعاً على كره ذلك الكيان بكلِّ أفعاله الدونيّة.

ابتسم حينها دكتور أبو المجد وبعدها بدأت نقطة انضمامه لفريق العمل العربيّ الذي أنشأه «أبو المجد» لدراسة خطة إسرائيل في زراعة شبكة تجسّس على مستوى الوطن العربي، أظهر لهم مجموعةً من الأوراق والمستندات التي توضح خطتهم منذ عشر سنواتٍ مضَتْ، وطلب منهم أن يقيموا دراسة على هذه المستندات ويضعوا خطوط التطور المحتملة لها، وبالفعل نجحوا في ذلك، ومنذ أكثر من عام تأكدوا من جميع معلوماتهم، وعرفوا جميع عناصر الشبكة وحدّدوا مواقعهم، لكن يبدو أنَّ الصهاينة كانوا على علم بالأمر فنفّذوا عملية اغتيال للعالم الكبير دكتور سالم عبد الرحمن وأظهروها على أنها حادث سيرٍ طبيعيٍّ.

****

(12)

دلف دكتور أبو المجد إلى منزله وهو يجرّ قدميه نحو الأريكة، وما إن وصل إليها حتى ألقى بجسده عليها، خلع نظارته ومسح عينيه بمحرمة ورقية، وضع كفيه على وجهه ليخفي عينيه بهما، شرد في الحديث الذي دار بينه وبين «صوفيا» في الخارج، ماذا عساه أن يفعل الآن؟!

لقد أبلغ مراد قائد الفريق الذي كوّنه منذ سنواتٍ طويلةٍ، سنوات من العذاب قضاها من أجل هذه اللحظة، واليوم أخبره بأن يجعل الفريق على أتمّ الاستعداد، حتى يضربوا ضربتهم القاضية، يثق بأنها ضربةٌ ستهز كيان الصهاينة، وإلَّا لمَ أرسلوا إليه شيطانتهم «صوفيا»؟، صوفياااا، فزع من مكانه وهو يتنكّر تلك الملعونة والحديث المسموم الذي ألقتْ به في وجهه منذ قليلٍ.

- أريد مخطّطكَ الذي تنوي به أن تقلب العالم رأساً على عقبٍ.
- عن أيّ مخطّطٍ تتحدثين؟!
- حقاً؟! دعنا نتحدث بشكلٍ أوضح، ذلك المخطّط الذي دبرته مستعيناً بالأوراق التي أخذتَ صورتها من منزلي ببريطانيا.

بدأ الماضي يضغط على ذاكرته أكثر.....

بريطانيا ١٩٩٠

احتشد عددٌ من طلاب جامعة كامبريدج داخل أسوار الحرم الجامعي يندّدون بالتبعات التي ألحقت قرار إلغاء الانتداب البريطاني على دولة فلسطين العربية، تنوّعت الحشود ما بين الطلاب البريطانيين والطلاب العرب الذين جاؤوا عن طريق البعثات التي ترسلها بلادهم العربية

للدراسة في جامعة كامبريدج، تلك الجامعة العريقة التي تُعَدّ واحدةً من أقدم الجامعات في العالم حيث أُنشئتْ عام ١٢٠٩من الميلاد.

بدأت الهتافات تعلو من الطلاب العرب يستنكرون تبعات ذلك القرار الذي اتخذته بريطانية في ١٤ مايو عام ١٩٤٨، وقبل ثماني ساعاتٍ من انتهاء انتدابها على فلسطين، القرار الذي أحدث فوضى عارمةً، وأشعل النيران في قلوب العرب، فقد أعلنت بريطانية رسمياً عن قيام دولة إسرائيل دون أن تُعلن حدودها بالضبط.

كان هذا القرار هو فتيل الأزمة التي أشعلتها بريطانيا حتى الآن، لم يغفر لبريطانيا يوماً أنها كانت السبب الرئيسي في الاستيلاء على فلسطين.

امتلأت ساحة الجامعة بالطلاب الثائرين فيما وقف عددٌ من الطلاب البريطانيين ينظرون إليهم بحنقٍ وغضبٍ، تأجّجت النيران بداخل الثوار وهم يرون أرضهم مباحة للطامعين، لم يستطيعوا أن يهنأوا بقرار إلغاء الانتداب

البريطاني الذي قدم أرضهم ملكا لغيرهم بدون مشورتهم.

كانت الهتافات تزداد مع كل نظرة حنقٍ من الطلاب البريطانيين حتى تقدّم أحدهم إلى الطلاب العرب وسبَّهم وهو يلعن اليوم الذي فتحت فيه الجامعة أبوابها لهم، كان ذلك كفيلاً في أن تحتدّ الأزمة أكثر وتبدأ اشتباكات بالأيدي بين الجانبين، حينها تدخل الحرس الجامعي وأخذ عدداً من الطلاب للمثول أمام رئيس الجامعة.

****

We, the president of the university of Cambridge, have decided to dismiss Asim Abu Al majid as a student because of the rioting that has affected many students inside the university

قرَّرنا نحن رئيس جامعة كامبريدج فصل الطالب "عاصم أبو المجد" المصري الجنسيّة من الجامعة بسبب ما فعله من أعمال شغبٍ أضرَّتْ بالعديد من الطلاب داخل الجامعة.

****

خرج «عاصم أبو المجد» من الجامعة وهو يجرّ أذيال خيبةٍ وراء ظهره، بعد أن بذل قصارى جهده كي يحصل

على بعثةٍ دراسيةٍ يستكمل بعثته خارج مصر حتى يعود إليها ليحقق طموحاته التي نمَتْ معه منذ الصغر، ابتسم بسخريةٍ وهو يرى مكانته العالية التي لطالما حلم بها وهي تصارع الموج قبل أن يبتلعها.

عاد إلى السكن الجامعي وحزم حقائبه استعداداً للعودة إلى مصر بعد أن تيقّن أنَّه من المستحيل أن يكمل حياته بهذا البلد الذي يلفظ نيرانه في وجه كلّ مَن يعارضه، كان منهكاً، ثقيل الهمّ، يشعر أنَّه فتى وُئدَت أحلامه قبل أن تنشأ.

قرار العودة إلى مصر أمرٌ حتميّ، ولكن ليس قبل أن يودّع محبوبته «صوفيا» زميلته بالجامعة، فتاة شقراء الشعر، متوسطة القامة، كانت تهوّن عليه أيام غربته الموحشة.

استقل سيارة أجرة يحمل بها أمتعته متوجهاً إلى المطار بعد أن حجز مكاناً له على الطائرة القادمة إلى مصر بعد أربع ساعاتٍ، توقّف أمام منزلها، وجد باب المنزل منفرجاً بشكلٍ يسمح له رؤية مَن بالداخل، كانت

«صوفيا» تجلس على أريكة بجوار رجلٍ في العقد الثالث من عمره يتحدّثان بصوتٍ يصل إلى مسامعه وهما يتبادلان الضحكات العالية، كان ينوى العودة مباشرة إلى المطار، ولكنه استوقفه ذلك الرجل وهو يقول بلهجةٍ ليست إنكليزية، عرفها عاصم مباشرةً فقد كان مهتماً بها إلى حدٍّ كبيرٍ، لهجة عبرية:

- سيعود عاصم إلى بلاده حتماً، وينتهي هذا الصداع البغيض، كم أرهقنا ذلك الفتى بشعاراته الحمقاء التي كانت تقلب السلطات البريطانية علينا!، كما أنّنا لا يمكننا قتله كي لا تنقلب بريطانيا علينا لمَا ستفعله مصر من أجل هذا اللعين.

ردَّت عليه «صوفيا» بنفس اللغة التي تبيّن أنها تتقنها جيداً:

- لا أصدق أنَّ ذلك الأحمق ظل مقتنعاً طوال هذه الفترة بأنّني أحبه.

قهقه عالياً وهو يقول:

- لقد أوقعتِه في حبّكِ بكلّ بساطة عزيزتي.

قاما من مكانهما مسرعَيْن عندما وجدا « أبو المجد» يفتح الباب على مصراعيه، سقط كأسٌ من يد « صوفيا» وهي تقول بارتباكٍ:

- «عاصم»؟! ألم تسافر بعد ؟!

- تخيّلي أنني لم أسافر!

توقّف الزمن للحظاتٍ، ظل كلٌّ منهما ينظر للآخر وفي عينيه ألف سؤالٍ، فُتحت النوافذ عن آخرها تشقّ حاجز الصمت الذي لفّ المكان بردائه، لكنَّ أحداً منهما لم يعبأ بشيءٍ، انطلقَ لسان أعينهما بحديثٍ صامتٍ:

- على ماذا تنوي يا عاصم؟

- جزاء الخيانة لدينا القتل.

- وابنك؟

- لا أريده.

قطع حديث أعينهما كلماتٌ خرجَتْ بحنقٍ من الرجل الذي كان يجلس مع صوفيا:

- «عاصم»، أنت مَن حدَّدتَ مصيركَ بيدكَ، لا شأن لنا بخروجكَ من بريطانيا.

ظل «عاصم» ينظر إلى «صوفيا» متجاهلاً كلام ذلك الرجل الذي عرف فيما بعد أنَّ اسمه «عزيز».

اقترب منها بخطواتٍ بطيئةٍ وعيناه تتفحصان وجهها، تصطاد الذُّعر من نظراتها، استقرّ أمامها بخطوةٍ واحدةٍ، تأمّل وجهها للحظاتٍ، كانت جذوة الغضب فيها قد بلغَتْ ذروتها بداخله، يشعر بأنفاسه تضيق وهو يتنكر أيامه معها، كانت تتحاشى النظر إلى عينيه وتهرب من نظراته التي تخترق وجهها، وتمزّقه بكلّ ابتسامةٍ كاذبةٍ رسمَتْها على وجهها من قبل، أغلق قبضة يده، وهو يعتصرها بقوةٍ حتى اصطبغت بلون الدم، ذاكرته تضغط عليه بقوةٍ، بريطانيا تسلّم فلسطين للصهاينة، فلسطين تفقد عروبتها، صوت المدافع، شاشة تليفزيونية تعرض أشلاء أطفال فلسطين، شباب يمسك جذوة النار بين يديه، الجامعة تعلن فصل الطالب «عاصم أبو المجد».

اتسعتْ حدقة عينه عن آخرها، تراجعَتْ صوفيا خطوة للوراء، لتشعر بقبضة يدٍ ترتطم بفكها فهوَتْ بها أرضاً، انقض فوقها ممسكاً بشعرها بين يديه وهو يدفن وجهها بالأرض، جذَّ على شفته السفلى بشدةٍ، وهو يقول بحنقٍ:

- لقد وعدتكِ سابقاً بحياة ليست كأيّ حياة، واليوم أكرّر وعدي أن أجعلكِ وخنازيرك يدفعون ثمن كلّ ما قدمتموه، أعدكِ بحياةٍ ليس لها مثيل، طعم المعاناة فيها أشدّ من العلقم.

تركها وهي تمسح على كلّ عظمةٍ بجسدها، تشعر بأنّ عظامها قد فُتّتت، استسلم هو لمحاولات» عزيز» لإخراجه من المنزل، نظر له عاصم نظرة نارية أصابته بالارتباك قبل أن يبصق في وجهه ثم قال:

- سأجعلكَ تتمنَّى لو أنَّني قتلكَ اليوم أيها الحقير.

ازداد توتّر «عزيز» فارتدّ للداخل مغلقاً الباب في وجه «عاصم».

سار في الطرقات حاملاً حقيبته، لم تهدأ مشاعره لحظة

واحدة، مع كل خطوة يخطوها يشتعل قلبه بالنيران، عقله كطواحين الهواء، يشعر بمرارةٍ في حلقه، جلس على أحد الأرصفة، يشعر أنَّ كل شيء حوله نجسٌ، ابتلع غصةً في حلقه، ثم نهض من مكانه فجأة وأوقف سيارة أجرة، لم يتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ بعد أن أخبر السائق بالعنوان.

وأخيراً توقفت السيارة أمام إحدى البنايات القديمة، ترجّل منها عاصم، وهو يحمل حقائبه، صعد البناية بخطوات متأنية، دائماً ما يشعر أنَّ هذا البناء لا يحتمل أن يستند بيده عليه، لكنّه في الوقت ذاته كان يشعر بالرهبة منه، فقد سأل صديقه ذات مرةٍ: «كيف تعيشون هنا؟، ألا تخشون الأشباح؟» فجاءه ردّ صديقه مازحاً وهو يغمز بإحدى عينيه، حتى الشبح الأوروبّيّ لا يمكنه هزيمة شابٍّ مصريٍّ.

توقّف أمام شقةٍ في الدور الثالث، رنّ الجرس فصدح بصوتٍ عتيقٍ يليق بقدم المكان، لحظات بسيطة وفتح الباب ليطلّ من خلفه شاب في مقتبل العمر، طويل القامة، نحيف البدن، ذو شعر أسود كثيف وشارب

صغير، يمسك بيده كتاباً وقلماً، تنقل الشاب ببصره بين عاصم وحقائبه التي تستقرّ بجانب قدمه على الأرض، عقد حاجبيه وقال بلهجةٍ مصريةٍ ريفيةٍ:

- ماذا حدث؟، هل تشاجرتَ مع أصدقائك بالسكن؟

وقبل أن ينطق «عاصم» أشار له الشاب بالدخول أولاً، جلس على أريكةٍ متهالكةٍ بالكاد حُشرت في صالة تلك الشقة الضيقة، ظلّ «عاصم» مطرقاً برأسه أرضاً، حتى عاد إليه صاحبه يحمل كوباً من القهوة وضعه أمام عاصم، ثم جلس بجواره وهو يقول:

- ماذا حدث يا عاصم ؟

تنهّد «عاصم» طويلاً قبل أن يقول:

- سأحكي لك كلّ شيءٍ بالتفصيل يا سالم.

كان سالم عبد الرحمن شاباً من ريف مصر، يكبر عاصم بعامين، تعرّف عليه عاصم فور وصوله إلى بريطانيا، وقد ساعده كثيراً واستطاع أن يكسب كلٌّ منهما ثقة الآخر حتى نشأت بينهما علاقةٌ قويةٌ فريدةٌ من نوعها، فكان

كلٌّ منهما يعلم عداء الآخر للصهاينة، عاصم يفعل ذلك بالعلن، ويعلم أنَّ «سالم» يتملّص منه بالجامعة خشية من عاقبة الأمر، ومع ذلك لم يعاتبه «عاصم» يوماً، بل كان يجاريه في رغبته، وعلى الجانب الآخر كان «سالم» يمضي قُدماً في عدائه بشكلٍ أكبر من صديقه لكن في السرّ، وكان الأخير على علمٍ بذلك، وسالم يعلم لكنَّ أحداً منهم لم يبح للآخر بشيء.

حكى «عاصم» لصديقه كلَّ ما حدث بالتفصيل وهو مطرقٌ برأسه أرضاً والغضب يحتلّ كل حرفٍ في كلامه، في المقابل احتقن وجه «سالم» غضباً، زفر بقوةٍ ثم قال:

- هذا يعني أنكَ فُصلتَ من الجامعة، وكنت طُعماً لهؤلاء الصهاينة، وفوق كلّ ذلك سيكون لديك طفلٌ من تلك الحقيرة.
- أنا لا أصدّق قصة الطفل تلك، ولم يعد لديَّ رغبةٌ بالعيش في هذا البلد، لكن قبل أن أغادر لا بد أن ألقّنهم درساً قاسياً.

نظر إليه «سالم» وضاقت عيناه باستفهامٍ:

- ماذا تقصد؟

تذكّر «عاصم» الوقت الذي كان ممسكاً فيه بشعر «صوفيا» منهالاً عليها ضرباً، لمحَتْ عيناه « عزيز» وهو يسحب ملفَّاً من على الطاولة ويضعه بأحد الأدراج، هنا لمعَتْ عين «عاصم» وهو ينظر إلى «سالم» كأنه وجد كنزاً، ثم قال بحماسٍ:

- متأكدٌ من أنّني أستطيع أن أسدّد لهم ضربةً قاسيةً.

- لا أفهم شيئاً.

- ستفهم، بالتأكيد ستفهم.

نزل من شقة «سالم» مسرعاً، وعندما وصل إلى منزل «صوفيا» وجد جميع الأنوار مطفأة فتمتم في نفسه:

- لابد أنَّها نائمةٌ أو خارج المنزل.

تسلَّل بخفَّةٍ إلى داخل المنزل، وأخذ يفتش في الأدراج إلى أن وصل إلى مبتغاه، وقبل أن يغادر المنزل سمع صوت خطواتٍ آتية من الخارج، نظر من النافذة فوجد

«صوفيا» عائدة بمفردها، فكّر قليلا فعلم أنّه ربما لا يستطيع الخروج بعد ذلك، وضع راحته على جبينه ثم مرّرها على رأسه وهو يتأفّف، فجأةً سمع صوت المفتاح بالباب، فعاد للوراء وهو يخبِّئ الكاميرا بين ملابسه، ثم جلس على الأريكة المقابلة للباب تماماً، فتحت صوفيا الباب وهي تلملم خُصيلات شعرها للوراء، أضاءت الأنوار وفجأةً استبدّ الرعب بملامحها وهي ترى « عاصم « جالساً أمامها على الأريكة، وهو يضع قدماً فوق الأخرى.

كانت ملامحه جامدةً لا تنمُّ عن أيّ مشاعر على الإطلاق، ينظر إليها نظرات خاوية، وهو يرى علامات الفزع على وجهها ولا يدري ماذا يفعل؟، أهي حبيبته فيعانقها أم أنها أكبر كذبة بحياته؟

أيّ مشاعر يحملها تجاهها الآن؟ ! هي حلمه الذي قضى أيامه فيه أم أنَّها هي مَن دمّرتْ حياته ومستقبله برمّته!!

فكّر أن يبدأ هو بالخطوة الأولى وإلا فانتظاره هنا أكثر من ذلك قد يفضح أمره أمامها، وقف بهدوءٍ لا يتناسب مع الجحيم المستعر بداخله، وتقدم نحوها بخطواتٍ

رتيبةٍ حتى استقرّ أمامها مباشرة، ثم قال بنبرةٍ هادئةٍ وهو يتحسّس خُصيلات شعرها الأشقر:

- رغم خيانتكِ إلَّا أنني أردتُ أن تكوني آخر وجهٍ أراه ببريطانيا قبل أن أغادر.

أغلقت عينيها وازدردَتْ ريقها بصعوبةٍ ثم فتحتها وهما مملوءتان بالرّعب وقد تجمعت الدموع بهما وهي تنظر إليه وهو يسحب شعرها نحوه والكلام يخرج من بين أسنانه:

- حتى أغادر بريطانيا وفي قلبي لها ما يكفي من الكُره.

ألقى بها بعيداً عنه ثم خرج وصفع الباب خلفه.

اطمأنَّ على أنَّ الكاميرا مازالت مختبئةً بين ملابسه، فأسرع مبتعداً عن منزل «صوفيا» وهو يضع يده عليها وينظر وراءه، كان الليل يلفّ المنطقة بردائه، والشوارع شبه خالية، فأسرع مبتعداً حتى تضايقَتْ أنفاسه وهو يلهث، ارتطم بشيءٍ أمامه فنظر إليه بهلعٍ تحوّل إلى ذعر تامٍّ عندما تبيَّن ملامح الواقف أمامه.

****

(13)

كان منزل دكتور «عز» هادئاً تماماً في العاشرة مساءً كعادة أيّ منزلٍ لرجلٍ عازبٍ، وعلى الرغم من رائحة القهوة التي كانت تعبق المنزل بشكلٍ يوحي إليك أنَّكَ داخل شقة صغيرة في زقاق حيٍّ شعبيٍّ، إلا أنَّ الشقة الفسيحة التي يسكن بها ذلك الرجل العازب الذي أوشك أن يتمَّ عامه الستين كانت منظَّمة كما لو كان بها عشر نساء يقفْنَ على خدمتها.

أغلق دكتور «عز» نوافذ الشقة بعدما انتهى من قراءة كتابه الذي يؤنس وحدته التي ارتضاها لنفسه، فربَّما كانت حياته غالية للدرجة التي لم يرتقِ أحدٌ لمشاركته فيها، ومَن يدري؟، ربَّما كانت تافهة بالقدر الذي يجعله لا يعبأ بأن يشاركه أحدٌ إيَّاها.

اتجه إلى سريره وهو يتدثر بردائه الشتوي، والبرد

يفتك بعظامه، وضع رأسه على الوسادة وهو يغمض عينيه ويشدّ الغطاء على جسده بالكامل كطقس يقومٍ به لاستدعاء النوم.

شعر برجفةٍ في جسده على أثر صوت تحطيم زجاج النافذة، وقبل أن ينفض الغطاء عن جسده، كانت هناك يدٌ قويّةٌ تكمّم فاه وتخمد حركته، حملق بعينيه في الفراغ، كلّ شيءٍ سيمرّ، السيّئ والأسوء سيَّان بالنسبة له، رفع عينيه نحو الشخص الذي يضغط على فكه وقد حُبسَتْ مقلتاه بالدموع في حين لم يرمش جفن لذلك الشخص الذي أوشك على إنهاء حياته.

يبدو من علوِّ المسافة بينهما أنَّ القاتل كان ضخم الجثة، حليق الرأس، عيناه تنطقان بجملةٍ واحدةٍ: لا تهمني حياتك أو موتك.

ترى ماذا فعل في حياته حتى تكون النهاية بهذه البشاعة، خفض عينيه عنه وقد بدأت أنفاسه بالاستسلام.

شدَّ القاتل يده على فمه كأنَّه يريد أن يعطي دافعاً

أكبر لروح ضحيّته كي تخرج من مسكنها، ثمَّ اقترب من أُذنه وقال بصوتٍ يشبه الفحيح:

- أين الأوراق؟

كانت قوى «عز» قد خارَتْ وبدأ يرحّب بالموت أو أنَّه كان مجبراً على الترحيب به، خفّ قضبته عنه وهو يعيد سؤاله:

- أين الأوراق؟

ابتلع ريقه بصعوبةٍ، ونسمة هواء باردة تسلَّلتْ إلى رئتيه فشعر بهما تحترقان، فقال وهو يسعل بشدةٍ:

- أيّ أوراق؟

وكزه في كتفه بعصبيةٍ وهو يضغط على مخارج حروفه:

- الأوراق التي أعطاها لك دكتور «أبو المجد».

كانت أنفاس دكتور «عز» تقل تدريجياً، فأشار إلى درجٍ بجوار سريره، فتحه القاتل بسرعة وأخرج منه ظرفاً كبيراً كتب عليه بخطٍّ منمَّقٍ «دكتور أبو المجد»، لمعت

عين القاتل بانتصارٍ وهو يدسّ الظرف بين ملابسه، ثم عاد إلى فم الدكتور «عز» من جديد، هذه المرة شعر بأنَّ الموت أقرب إليه من التقاط نفَسه القادم.

شعر بأنَّ حرارته تنخفض، فقدان غامض للإحساس في أطرافه، انسحب الدم إلى صميم جسده ليحمي أعضاءه الداخلية الحرجة، صرخات طفلٍ لم يولد، ابتسامة فتاة لم يُرزَق بها، هنيان.

تباطأت سرعة التنفس، سمع صدى قهقهة في نفسه ساخرة من جسده الذي يقوم بمحاولته الأخيرة للحفاظ على حرارته المتبقية، فأغلق جميع الفاعليات باستثناء القلب والتنفس، لحظات قليلة قضاها وهو يرى محبوبته التي صام بعدها عن كلِّ نساء الكون، وقفته بين طلابه في المحاضرة، شهادة الدكتوراه بعد عناءٍ طويلٍ، أيام الجامعة وهو طالب ينتظر كل جمعةٍ للقاء حبيبته، شعر أنَّه منهكٌ كملاكم في الجولة الثانية عشرة، لم يهزم بالضربة القاضية ولكنه هزم بالنقاط بعد كفاحٍ طويلٍ، شعر بالخدر يسري ببدنه كأنَّه عقار مُخدر للترحيب

بما هو آتٍ، مورفين الطبيعة، شعاع نورٍ يتراقص في عينيه، بدأ جسده ينغلق ببطءٍ خامداً من تأثير قوة خفية تسحبه للنوم الأبديّ، وانسحب الدم من أطرافه كطاقم هجر سفينته، لم يعد يشعر بشيءٍ آخر فقد حلَّ الظلام وسكن كلّ شيءٍ بعده.

****

(14)

في شرفةٍ فسيحةٍ لغرفة منمّقة في فندق من أفخم فنادق القاهرة، تجلس امرأةٌ ذات شعر أشقر، ترتدي فستاناً أسود ذا أكمام طويلة وفوقه معطف بنّي من الفراء، تضع قدماً فوق الأخرى وتنفث دخان سيجارتها بعصبيةٍ، أمسكت بكأس من النبيذ وارتشفت منها بتوتر، ثم أعادتها إلى الطاولة الصغيرة التي تستقرّ أمامها، كان الجالس أمامها رجلاً طويل القامة نحيف البدن ذا عينين ضيقتين، ينظر إليها متفحصاً تعبيرات وجهها كأنَّما يحاول معرفة ما يدور برأسها، زفر بضيقٍ ثم عاد بظهره إلى الوراء، صمت قليلاً ثم قال بعصبيةٍ حاول السيطرة عليها:

- لو أنَّكِ تعاملتِ مع الأمر بجدّيةٍ منذ سنواتٍ طويلةٍ لمَا كنَّا وصلنا إلى هذه اللحظة أبداً، لقد حدثتكِ مراراً في هذا الأمر يا صوفيا، ولكنك دائماً ما كنتِ

تستهينين به، والآن ماذا نفعل بعدما أصبحنا جميعاً مهدَّدين بالخطر من ذلك التافه؟

أطفأت سيجارتها بعصبيةٍ وهي تنظر إليه بحنقٍ، ثم قالتْ:

- لقد كان خطؤكَ أنت يا عزيز، أنتَ مَن تركت الأوراق في منزلي تلك الليلة.

هدأتْ قليلاً ثم عادتْ بظهرها إلى الوراء:

- ظننت أنَّ الأمر سيتنهي بعد عودته لبلاده، لكن ذلك الأرعن فعل ما لم نتوقعه أبداً.

- والآن ماذا سيحدث برأيكِ؟ هل سيستجيب بتهديدكِ له؟

- لا أعلم يا عزيز، من المفترض أنَّ أستاذاً جامعيًّاً مثله يخشى على سمعته، وبالطبع لن يقبل أن يعرف الناس أنَّ له ابناً غير شرعيٍّ، وليس ذلك فحسب بل إنَّه إسرائيلي.

ملأت الكأس لنفسها ثم ارتشفَتْها جرعةً واحدةً، وقالت

بشرودٍ، بصوت يشبه الهمس:

- لكن «أبوالمجد» لا يمكن توقّع خطواته، هو دائماً ما يسير عكس عقارب الساعة.

****

(15)

جلس «نضال» على ركبتيه بجوار جثة أخته « سمر» التي كانت منبطحةً على الأرض وغارقة في دمائها، ابتسامة رقيقة على شفتيها، تماماً كابتسامة والده عند وفاته، ضمَّها إلى صدره كأنما يحاول أن يلملم آخر ما تبقَّى منه، أغمض عينيه وترك الدموع تنساب منها بلا وجهةٍ، ضمَّها إليه أكثر، يخشى أن يأخذها أحدٌ من بين يديه، كانت رقيقة كوردةٍ جوريةٍ تجنبكَ إليها لكنكَ تخشى أن تلمسها فتذبل، كانت تحتويه أكثر من العالم كله، تُوفِّيتْ والدته وهو في العاشرة من عمره بعد صراعٍ مع المرض، لم يعرف بعدها عالماً غير عالم سمر، حتى والده، فقد كان مختفياً عن عالمه حتى قبل موته، اختفى بالقدر الذي غلَّف به نفسه بالغموض والحيطة، كان يشكُّ أنَّ أباه يعمل في إحدى المنظمات الإجرامية، أو

ربما يكون عميلاً لدى المخابرات، شيء من ذلك كانت توحي به نظراته المريبة وكلامه القليل وحيطته الزائدة عن الحدِّ، لكنْ نضال لم يكن ليشغل باله يوماً بالشيء الذي يتخفَّى والده منه خلف صورة الأستاذ الجامعي والعالم الكبير، سمع كثيراً أنَّ العلماء متعدّدو الأطوار وربّما فقدوا عقولهم يوماً، لكن العلم الذي كان يختزله أبوه كان خطيراً لدرجة أنه قد فَقْد حياته من أجله، في اليوم التالي لمراسم دفن جثة أبيه وقعت عيناه على خبرٍ بالجريدة «حادث سير يؤدي بحياة العالم الكبير «سالم عبد الرحمن»».

هل كان مجرّد حادثٍ؟!

ارتعدت فرائصه من ذلك الخبر، هل هي لعبة الصحافة كالمعتاد؟، يشعر أنَّ في الأمر خطباً ما، تأكد منه عندما أتاه اتصالٌ من شخصٍ مجهولٍ جعله يشكّ في الأمر أكثر.

رنَّ هاتفه في منتصف الليل، كان الرنين متواصلاً كأنما يصرّ صاحبه على أن يأتيه الجواب، استيقظ «نضال»

فزعاً، فهو لم يعتد تلقّي اتصالات في وقتٍ كهذا، بأعين نصف مغمضة أجاب :

- ألو، مَن معي ؟

صمتٌ مطبقٌ استمرّ لثوانٍ معدودةٍ ثم أتاه الردّ من الجهة الأخرى :

- تنام ووالدك مقتولٌ؟!

كان الصوت أنثويَّاً ذا نبرةٍ مستفزةٍ جعلته يعتدل في جلسته وهو يكرّر سؤاله:

- مَن معي ؟

سمع صوت أنفاسٍ فهم منها أنَّها تدخن، ثم قالت بنبرةٍ أكثر استفزازاً من سابقتها :

- ليتك تشغل بالك بمعرفة قاتل أبيكَ بدلاً من أن تشغل بالكَ بمعرفة مَن أنا؟

كاد ينطق قبل أن يختفي الصوت وتغلق المكالمة.

هرب النوم من عينه كجاسوسٍ أرعن، لم يتوقَّف

عقله عن التفكير منذ أن تلقَّى تلك المكالمة، ظلَّ طائر الحزن يرفرف في عينيه وقد أثقل كاهله بالهموم من كلِّ جانبٍ، صار مشتَّت التفكير، شارد الذهن، يشعر بأنَّ حوائط حجرته التي يقضي فيها كلَّ وقته تضيق عليه، كاد يختنق، خرج في الحادية عشرة مساءً وأخذ يسير في الشوارع بلا اكتراثٍ، أطلق لقدميه العنان وتركها تسوقه إلى حيث شاءَتْ دون أدنى تعقيبٍ منه.

أرهقه السير وأعياه التفكير فعاد إلى منزله بعد أكثر من ساعتين، وقبل أن يدلف إلى الشقة وجد ظرفاً أصفر متوسط الحجم ملقى تحت قدميه، التقط الظرف بتعجُّبٍ، وأخذ ينظر إليه باستغرابٍ، وقبل أن يفتحه سمع صوت أخته يأتيه من الداخل:

- مَن بالخارج ؟؟

وضع الظرف بجيبه ثم دخل إليها وأغلق الباب خلفه، أومأ برأسه مطمئناً، ودخل إلى غرفته دون أن ينبس بنبت شفةٍ.

جلس على حافة السرير، وأخرج الظرف من جيبه، ظل يقلّب فيه، لا يحمل أيّ شيءٍ آخر سوى اسمه «نضال».

تردَّد قليلا ثم فتحه بحذرٍ، وجد بداخله ورقة مطوية، ابتلع ريقه، وهو يفتح الورقة، لم يجد سوى جملةٍ واحدةٍ فقط كتبت بخطٍّ سيّءٍ استطاع أن يقرأه بصعوبةٍ « غدا الساعة العاشرة مساءً، أمام قصر البارون»، ما هذا ؟؟ انهال على عقله وابلٌ من الأسئلة، فعاد النظر إلى الظرف من الخارج فوجد اسمه مكتوباً عليه بخطٍّ ركيكٍ كالذي كتبت به الورقة.

رُسِمت بعقله الكثير من السيناريوهات وكلها تشير إلى أنَّ هذا الأمر متعلقٌ بوفاة والده.

بعد تردّدٍ كبيرٍ استقرّ على أنَّه سينهب في الموعد الذي كُتب له، وإن كان الأمر قد يكون خطراً على حياته، لكنَّه على الأقل سيحصل من خلاله على أجوبةٍ للأسئلة التي تعصف برأسه.

خرج من منزله في اليوم التالي في تمام التاسعة

والنصف متجهاً من منزله بمصر الجديدة نحو قصر البارون، المسافة بين منزله وبين القصر لم تكن لتستغرق خمس عشرة دقيقةً، لكنه كان ينوي أن يكون موجوداً في المكان قبلهم، أصبح على مقربةٍ من القصر من الجهة المقابلة له، واستقرَّت قدماه أمام مكتبة مصر العامة- بمصر الجديدة، كانت المكتبة تبعد عن القصر بحوالي ثلاثة أمتار من الجهة المقابلة، وقف أمام المكتبة وهو يراقب المكان أمام بوابة القصر محاولاً تجاهل حركة السيارات من مجال بصره، مرَّ أكثر من نصف ساعةٍ ولم يظهر أحدٌ، حينها قرَّر أن يعبر الطريق للجانب الآخر ووقف أمام بوابة القصر لدقائق حتى أنَّت قدماه، فجلس على حافة سور القصر المكسور، كان الجزء المكسور من السور يسمح بالجلوس عليه ورؤية مدخل القصر بشكله المهيب.

بدأ الملل يزحف إلى عقله وسيطرَتْ عليه فكرة أنَّ تلك الرسالة لم تكن سوى مزحةٍ سخيفةٍ، ولا جدوى من جلوسه هنا يراقب السيارات المارّة.

كانت فكرة أنَّ الموعد في مكانٍ هكذا يسمح للجميع

برؤيته، أي أنَّه مكانٌ مكشوفٌ لا يتوارى فيه من السيارات التي تعبر الطريق بين الدقيقة والأخرى، الفكرة في حدّ ذاتها مطمئنةٌ ومثيرةٌ للشكّ في آنٍ واحدٍ، فهي مطمئنةٌ بالقدر الذي يجعله يستنتج أنَّ الشخص الذي يريد لقاءه لا ينوي إيذاءه، لكنّها أثارت الشك بداخله من حيث إنَّه مكانٌ غير صالح للجلوس والحوار !! لمعَتْ في رأسه فكرة مريبة فهبَّ واقفاً من مكانه، عبث بأزرار الهاتف ثم وضعه على أُذنه لثوانٍ معدودةٍ مرَّتْ عليه كالدهر وهو ينتظر ردَّ الطرف الآخر، وحينما أتاه الردُّ بصوتٍ أنثويٍّ واهنٍ قال في لهفةٍ:

- سمر، هل أنتِ بخير ؟؟

- نعَم، أنا بخيرٍ بالتأكيد، ماذا حدث ؟!

تنهَّد بارتياحٍ ثم قال بنبرةٍ حنونٍ:

- لا شيء، فقط أردت الاطمئنان عليكِ وإخبارك بأنَّني ربَّما أتأخر قليلاً.

- أنا بخيرٍ، اعتنِ بنفسك.

- حسناً، مع السلامة.

أغلق الهاتف وقد بدأ يستسلم لفكرة أنَّها دعابةٌ فقط من شخصٍ مختلٍّ، أو ربّما يكون أحدهما أراد اللعب بأعصابه.

كاد ينصرف قبل أن تتوقّف أمامه سيارة مرسيدس سوداء، ونزل منها شابٌّ وسيمٌ ذو لحية كثيفة وشارب كثّ، نحيل البدن، يرتدي بذلة أنيقة، كان يجلس خلف عجلة القيادة، فتح له الباب الخلفي للسيارة وأشار له بيده، تردَّد قليلاً ثم استطاع أن يتغلّب على شعور القلق بداخله، عليه أن يقتل شكوكه كلّها، حانَتْ منه التفاتةٌ أخيرةٌ نحو القصر، ركب بعدها السيارة دون كلمةٍ واحدةٍ.

عاد الشابّ الوسيم للجلوس في مقعد السائق مرةً أخرى، ثم انطلقت السيارة تشقُّ طريقها بين السيارات الأخرى، بدا السائق هادئاً بشكلٍ أثار فضول نضال أكثر، لأوَّل مرةٍ يشعر بهذا الهدوء في شوارع القاهرة، والأعجب من ذلك أنَّه رأى هذا الهدوء ينعكس على نفسه الثائرة.

توقَّفت السيارة بالقرب من كورنيش النيل، ترجَّل

السائق منها، ثم فتح الباب لنضال، كانت نظرة نضال توحي بالاندهاش أكثر من الخوف أو القلق، لكن الشابّ الوسيم بدا كأنَّ الأمر لا يعنيه فلم ينظر في عين نضال ولو مرةً واحدةً.

نزل نضال من السيارة ومشى بجوار الشابّ حتى وصلا إلى يخت كبير مستقرّ بالقرب من حافة النهر، يقف على حافة اليخت رجلٌ ضخمٌ الجثّة مفتول العضلات، مدّ يده لنضال فسلّمه الأخير إياها، استطاع نضال أن يشعر من تلك اللمسة التي لم تدم طويلاً بأنَّ هذا الرجل قد شحذ همّته مستعدًّا لأيّ قتالٍ، نظر إليه متفحصاً بعدما صار على ظهر اليخت ثم حدَّث نفسه قائلاً:

- هذا إن لم يكن يعشق افتعال أيّ أمر للقتل أو الشجار.

توقّع أن يجد عدداً كبيراً من الرجال المسلَّحين كما يرى في أفلام الأكشن، لكن عينه لم تلتقط أيًّاً من المشاهد التي أعدَّتها مخيلته سابقاً.

كان اليخت هادئاً تماماً لا يحمل على ظهره سوى نضال

وذلك الرجل مفتول العضلات وامرأة كبيرة لكنها ليست عجوزاً على ما يبدو، ذات شعر أشقر وملامح غربية، وبجانبها يجلس رجلٌ طويل القامة نحيف البدن، يحمل الملامح الغربية ذاتها، لكنَّه لا يعلم سبباً واضحاً لذلك الشعور الذي باغته فجأة نحوهما، كان يشعر بالاشمئزاز والرغبة في المغادرة دون بدء أيّ حديثٍ.

- اجلس يا «نضال».

قالتها المرأة بلكنة عربية متهرئة، نظر إليهما مطوَّلاً وهو يشعر بالموج يداعب اليخت ويأخذه في جولةٍ إلى عرض البحر لكن بأيّ شيء ستنتهي هذه الجولة يا تُرى؟

جلس بتشكّكٍ وأخذ يتنقل ببصره بينهما، حاول أن ينتقي كلماته لكنها خرجَتْ جافةً من فرط توتره:

- لعبةٌ سخيفةٌ، وأنا أكره هذا النوع من المزاح.

ضحكَتْ صوفيا بصوتٍ عالٍ، لوهلةٍ شعر أنَّ هذه المرأة أكبر سناً ممَّا تبدو، وقد تكون أخطر بكثيٍ، ردَّد الموج والفضاء الواسع ضحكتها كأنَّهما يؤكّدان شكوكه.

- صدقني عزيزي، ليس لدينا وقتٌ للعب من الأساس، نحن هنا من أجلك أنتَ فقط.

اقتربَتْ منه أكثر ومالَتْ برأسها نحوه وهي تقول بصوتٍ أشبه للهمس:

- من أجل أن نثأر لمقتل أبيكَ.

رمقها بنظرة غضبٍ عبَّر عنه قائلاً:

- أبي لم يُقتل، بل مات في حادثٍ، لا أعرف مَن أنتم بالتحديد؟، لكنني لست أحمق حتى أسير خلفكم دون دليلٍ.

تحدَّث الرجل طويل القامة للمرّة الأولى منذ لقائهم وقال بخبثٍ:

- لدينا الكثير لتراه، ولكن حرصاً عليك سنريكَ ما لا يؤذيك فقط.

****

غادر اليخت وسار على الشطّ وحيداً بعدما رفض أن يوصله أحد، كانت نظرة انتصارٍ وثقةٍ تبرز في عين

المرأة ورفيقها، ارتمى في أحضان الشوارع تضيق عليه بكلّ قوتها، لكنه يشعر بالبرد يخترق أوصاله، شارد الذهن، تعبث به الحياة بين أصبعيها، قدماه مرتخيتان، لينة كساق طفلٍ حديث الولادة، عقله يضجّ بالكثير من الأسئلة والشكوك، للمرة الأولى يشعر بتضاربٍ في مشاعره تجاه وفاة أبيه، هل يحزن لفراقه، أو يفرح؛ لأنَّه اكتشف حقيقته وإن كانَتْ بعد موته؟.

ولكن هل هي الحقيقة فعلاً؟، كانت كلمات المرأة تتردّد في عقله بطنينٍ مزعجٍ، كان أبوكَ يعمل معنا من أجل سلامتنا وسلامتكم لكن اغتالَتْه جماعةٌ إرهابيةٌ وأظهرَت الأمر على أنَّه حادث سير.

رسائل غير مفهومةٍ تأتي لأبيه، تثور ثائرته حينما يعلم أنَّ أحداً اطّلع على أيّ شيءٍ يخصّه، حيطةٌ وحذرٌ دائمان زائدان عن الحدّ.

... نحن نريد الثأر لمقتل أبيكَ، كما نريدك أنت أن تستكمل مسيرته معنا !!

ظل عقله يصرخ بإزعاج كقطٍّ دُهسَ تحت عجلة سيارةٍ طائشةٍ، أناا!!

شعر بضيق صدره وتهاوَتْ قدماه فجلس على أحد الأرصفة، مهمَّته تكاد تكون مستحيلةً، هل سيستطيع التجثّث على دكتور «أبو المجد» حتى وإن كان هو قاتل أبيه حقَّاً كما قالوا له !! هو أضعف من أن يقوم بعملٍ كهذا.

هزَّ رأسه كمَن به مسٌّ من جنونٍ وهو ينفض عنها فكرة الإقدام على خداع ذلك الرجل الذي لم يعرفه من قبل، لا يستطيع فعل ذلك مهما كان الدافع، يشعر أنَّ هذه اللعبة بها مخاطر عديدة أكبر بكثيرٍ من عملية التجسُّس.

انتفض من مكانه فزعاً، واتسعت عيناه، وفغر فاه وهو يتذكّر تهديدهم له:

- تنكر جيداً أنك فقدتَ أمك ثم أباكَ، ولا نعتقد أنكَ تودّ خسارة أختكَ هذه المرة.

عاد من رحلته عبر ماضٍ قصم ظهره وعبث بفتات روحه الخربة، نظر إلى وجه أخته الذي غطَّته الدماء،

كان وجهها شاحباً، ومع ذلك رأى الألم مسطَّراً على صفحاته، ضمّها إلى صدره أكثر وظلَّ يصرخ بكلِّ ما فيه، كانت غرفة المكتب خاليةً من الحياة تماماً كجسد أخته الذي غادرته الروح دون سابق إنذارٍ، الموت لصٌّ متنكّر يأتيك على عدة هيئات، فتارة يسفك دمكَ، وتارة يغار من النوم فيسرقكَ منه، وتارة أخرى تأكل الغيرة قلبه فيقرر ألَّا ينيقكَ طعم النوم ولا يمنحكَ الحياة، وفي الوقت ذاته أنتَ لست في حساباته ولا ضمن قائمة ضحاياه.

كلُّ حياةٍ بدون حياةٍ هي موتٌ متنكرٌ، لصٌّ يتجمل، مخادعٌ يرتدي عباءة الشرف، مَن قال إنَّ نبضات القلب دليل على الحياة؟، ومَن قال إنَّ وجود دماء بداخلك مؤشر للنجاة؟! فماذا عن ذلك الذي فقد كلَّ ما لديه في معركةٍ للطامعين ولم يكن يوماً طامعاً ولا مغتالاً، عجلات الحرب تسنّ تروسها لتدهس كلَّ مَن وقف بطريقها، هكذا ظنّ في البداية ولكنه الآن تعلَّم أنّها لا ترحم مَن أفسح لها الطريق أيضاً.

وضع جثة أخته على الأرض، وظلَّ يمسح دموعه بظهر

يده، ثم ظل ينظر إليها مليًّاً دون حراكٍ، امتلأت الشقة بالجيران الذين أتوا على صوت صرخاته وعمَّت الفوضى والجميع يسأل عن تلك الفتاة التي قُتلت في شقتها بعد وفاة أبيها بفترةٍ ليست بالكبيرة، سيارات الإسعاف والشرطة تملأ المكان والجميع بين مشفقٍ ومندهشٍ.

جلس ضابط المباحث مع نضال، وهو يربت على كتفه بيده، والأخير في حالة صمتٍ تامَّةٍ، ينظر في الفراغ أمامه.

- أنا أعلم مدى قسوة الوضع عليكَ، لكني مضطرٌ لسؤالكَ.

صمت قليلاً ثم تابع:

- هل تعلم مَن القاتل؟

لحظات قليلة من الصمت حتى هزَّ رأسه إيجاباً ثم قال وهو لا يزال شارد الذهن تحملق عيناه في الفراغ:

- أنا!!!

****

(١٦)

اقشعرَّ جسد دكتور «أبو المجد» وهو يستعيد بذاكرته ما حدث في تلك الليلة بعدما اطمأنَّ على أنَّ الكاميرا مازالتْ مختبئةً بين ملابسه، فأسرع مبتعداً عن منزل «صوفيا» وهو يضع يده عليه وينظر وراءه، كان الليل يلفّ المنطقة بردائه، والشوارع شبه خاليةٍ، فأسرع مبتعداً حتى تضايقَتْ أنفاسه وهو يلهث، حتى ارتطم بشيءٍ أمامه فنظر إليه بهلعٍ تحوَّل إلى ذُعرٍ تامٍّ عندما تبيَّن ملامح الواقف أمامه.

كان شخصاً طويل القامة ينظر إليه بشكٍّ، استطاع أن يتبيَّن ملامحه تحت ضوءٍ خافتٍ يأتي من أعمدة الإنارة، لم يكن ذلك الرجل سوى «عزيز» شريك صوفيا في الإيقاع بـ «أبو المجد»، ابتلع أبوالمجد ريقه بصعوبةٍ، وفي توتّر نجح في إخفائه بإظهار علامات الحنق والغضب على

وجهه، ثم ابتعد دون حديثٍ ولم ينظر خلفه ولو مرةً واحدةً.

كان قد اتفق مع «سالم» أن يلتقي به بالقرب من المطار، وبالفعل عندما وصل كان «سالم» في انتظاره، ظهرَتْ علامات الارتياح على وجهه وهو يرى «أبو المجد» يترجَّل من سيارة أجرة ويتجه نحوه، جلسا سويًّا في صالة المطار، وكان حديثهما مقتضباً جدًّا..أخرج «سالم» ورقةً صغيرةً من جيبه وأعطاها لـ «أبو المجد»، وقال بصوتٍ منخفضٍ:

- هذا عنوان صديقٍ لي سيساعدكَ على الالتحاق بالجامعة في مصر، لا تعد إلى هنا ثانيةً.

عانق كلٌّ منهما الآخر وانصرف سالم تاركاً أبا المجد يعود لبلاده بخيبة أملٍ ومستقبلٍ خطيرٍ مجهولٍ.

****

أفاق من شروده على يدٍ حانيةٍ وُضعَتْ على كتفه فنظر إلى زوجته التي أكل المرض جسدها حتى صارَتْ كعود زرعٍ يابسٍ، كانت تنظر إليه بإشفاقٍ وهي تمسح

العرق الذي تصبَّب على جبينه، قالت بصوتٍ هادئٍ وابتسامةٍ حانيةٍ تزيّن شفتيها:

- نحن تقشعرّ أبداننا من البرد وأنت يغطي وجهك العرق!

خفض رأسه يتوارى من علامات الاستفهام التي تظهر في عينيها، ثم رفع رأسه مستفهماً عندما سمعها تقول:

- مَن ذلك المزعج الغليظ الذي لم يكفّ عن إزعاجكَ؟

لمحَتِ الحيرة والتساؤل على صفحات وجهه فأردفَتْ قائلةً:

- رنَّ هاتفكَ ثلاث مراتٍ دون أن تجيب، كان اتصالاً مزعجاً إلى هذا الحدّ؟!

نظر إلى هاتفه الملقَى بإهمالٍ أمامه على الطاولة فوجد بالفعل ثلاث مكالماتٍ من أحد زملائه بالجامعة، أغمض عينيه لبرهةٍ وهو يتنفّس بصعوبةٍ، ثم عاود الاتصال به وحينها انصرفَتْ زوجته بهدوءٍ كما أتَتْ.

كان يتوقع تلك المكالمة، وعلى الرغم من ذلك فقد شعر

بالأسى لفقدان صديق عمره، كان « عزّ « قد ألحَّ على «أبو المجد» كي يقرّر مصيره ويعجل بنهايته الحتمية، لم يكن «عز» يعلم الكثير عمَّا يخفيه «أبو المجد» لكنه كان على يقينٍ أنَّه لن يضحِّى بنفسه هكذا إلا من أجل أمرٍ جَللٍ على الرغم أنَّه لم يخبره بشيءٍ إلَّا منذ بضعة أيام فقط ..اتفق الصديقان أن يجعلا «عز» طعماً تلتهي به صوفيا ومَن وراءها حتى يستطيع «أبو المجد» تنفيذ مخطَّطه، حينئذٍ ذكر له أنَّهم أرسلوا إليه «نضال» ابن صديقه الحميم سالم عبد الرحمن كي يتجسَّس عليه وينقل لهم أخباره، فاتفقا على مكالمةٍ مزيفةٍ نفّذوها أمام «نضال»، حينها رنَّ هاتف الدكتور «أبوالمجد» وعندما شرع في الردِّ كاد الطالب يغادر فاستبقاه بنظرةٍ من عينيه يسمح له بالجلوس.

- ألو... مرحبا بكَ يا دكتور «عز»، كيف حالكَ اليوم؟

- .....

- لا عليكَ، فقط حافظ على ما أعطيتكَ إيَّاه، أنتَ تعلم أهميته عندي جيّداً.

- أعلم ذلك، ولولا ذلك ما ائتمنتكَ ...مع السلامة .

التفت إلى الشابِّ وهو يلملم أوراقه:

- حسناً، عليَّ الانصراف الآن، سنكمل حديثنا لاحقاً يا... ما اسمك ؟

- اسمي «نضال» سيدي .

ومنذ ذلك الوقت وكلٌّ منهما ينتظر خبر موت الآخر، سمع صوت صرخاتٍ تأتي من الداخل فهبَّ من مكانه واقفاً وهرع إلى الداخل فوجد أولاده جالسين أمام التلفاز الذي أطلق تلك الصرخات التي أفزعته، شرد للحظاتٍ يتأملهم فيها ثم انصرف دون كلامٍ، قضى قليلاً من الوقت بمنزله قبل أن ينهب إلى منزل دكتور «عزّ».

****

(١٧)

ألقَتْ صوفيا بالأوراق في وجه الرجل الأصلع الواقف أمامها، وأطلقت سبَّةً عاليةً وعيناها تشتاطان غضباً، صرخ «عزيز» في الرجل، وأمرَه بالانصراف ثم التفتَ إلى صوفيا وقد هدأتْ نبرته قليلاً وهو يقول:

- يمكننا تدارك الأمر، أعتقد أنَّه ما زال لدينا وقتٌ.

كاد يكمل فباغتَته قائلةً بعصبيةٍ مفرطةٍ:

- لم نستطع حتى الآن أن نعلم ما الذي يخطِّط له «أبو المجد»؟، ولا شكَّ أنَّ ظهورنا له سيعجّل بخُطَّته مهما كانت، هو يسبقنا بخطواتٍ ونحن لم نستطع حتى حلَّ الأحجية التي يتركها وراءه كلَّ مرةٍ.

ألقَتْ بجسدها على الكرسيّ ووضعَتْ قدماً فوق الأخرى، أشعلَتْ سيجارتها وأخذَتْ تتابع دخانها

المتصاعد، بينما وقف « عزيز» يراقبها على أمل أن تهبَّ واقفةً كعادتها وتخبره أنَّها وجدَتْ حلاً لتلك الكارثة التي ستنهب برأسيهما بلا شكٍّ، لكنها لم تفعل!

****

(١٨)

عبر «مراد الحسيني» الممرَّ الضيِّق ذا الإضاءة الخافتة، يسير بخطواتٍ واثقةٍ، لكن القلق بدا جليَّاً في رعشة أصابعه وهو يعدل من نظارته الطبية، على الرغم من أنَّ «مراد» يمتاز بذكاء عالٍ وحسن سياسته للأمور إلَّا أنَّه كان يرى أنَّه ليس لديه من التجارب ما يؤهّله لتحمُّل مسؤوليةٍ كتلك، وما أعطاه الثقة في نفسه هو أنَّ دكتور «أبوالمجد» قد اختاره شخصيَّاً كي يأتمنه على سرِّه، وليس هذا فحسب، بل كي يتولَّى قيادة هذه العملية الأخطر على الإطلاق أيضاً.

دلف «مراد» إلى قاعةٍ كبرى بها العديد من الأجهزة وشاشات عرض صغيرة بعض الشيء، يجلس أمامها مجموعة الرجال الذين كان قد التقَى بهم منذ ثلاثة أيَّامٍ، كلٌّ منهم يجلس أمام شاشةٍ متصلةٍ بكاميرا مراقبة، ويضع

سمَّاعة رأسٍ على أُذنيه، كانت الإضاءة خافتة، وهواء القاعة معبق بالتوتر، وقف « مراد خلفهم يتابع الشاشات أمامه في صمتٍ وتوترٍ ملحوظٍ، وشفتاه تتحركان بهمسٍ غير مسموعٍ، وكل رجلٍ يجلس أمامه عيناه مثبتتان على الشاشة التي أمامه، صمتٌ، إصرارٌ، ترقُّبٌ، حنرٌ، حماسٌ، خوفٌ وقلقٌ مزيجٌ من المشاعر المختلطة، لا تستطيع أن تفرِّق بين النظرات التي تطلُّ من أعينهم، عيون تلمع بشغفٍ غريبٍ كأنها تنتظر هذه اللحظة منذ مئات السنين، بل منذ بدء الخليقة، شيءٌ ما يؤلّف بينهم، يوحّدهم في هذه اللحظة، هناك سؤالٌ عالقٌ في هواء القاعة تنثره عين كلٍّ منهم «هل سننجح ؟»، لا أحد يودُّ الإجابة على هذا السؤال، ربَّما ليس الآن، ويجوز أن يكونوا جميعاً جاهلين بهذا الأمر، أو ربَّما كان لهذا السؤال نمطٌ خاصٌّ لا يمكن الإجابة عليه بـ « نعَم أو لا».

نظر مراد في ساعته، كانت تشير إلى الثانية إلا ربعاً بعد منتصف الليل، فرك أصابعه بتوتر، ما زال أمامهم خمس عشرة دقيقةً على التنفيذ، ساعة الصفر

كما يقولون، هل سيعود حقاً إلى الصفر من جديد؟ ماذا يقصدون بها ؟!

نظر إلى الشاشات أمامه، كلٌّ منها تعرض مكاناً مختلفاً في دولةٍ مختلفةٍ، وكلُّ شاشةٍ يطلّ عليها وجهٌ غير الآخر، ولكنهم جميعاً متشابهون، قد تختلف أعمارهم وملامحهم ومعدّل ذكائهم، لكنهم جميعا يتّفقون في مهامهم التي سيموتون من أجلها، الشاشة لا تعرض أعين الجميع، لم يستطع أن يرى نظراتهم ليعمل بما يشعرون قبل لحظاتهم الأخيرة، أحدهما أحمق يجلس متكئاً على أريكته وله قرينٌ من جسده يمتدّ أمامه بلا اكتراثٍ، أيُّها الغبيُّ، اعتدل في جلستكَ فهذه آخر إطلالةٍ لك على الشاشات، عذركَ الوحيد أنَّكَ لا تعلم أنَّنا نراك، ومَن منا لم يكن لديه ما يرغب فيه بينه وبين نفسه دون أن يراه أحدٌ؟، لكن هل هو حقاً لا يعلم أنَّنا نراه؟، ابتلع « مراد « ريقه في صعوبةٍ وعدل نظارته ولا تزال عيناه مثبَّتتين على هذا الرجل دون غيره، ربما يشعر بالاغتياظ منكرشه التي تدلَّتْ أمامه ممتلئةً بلحوم العرب، يشعر

أنَّ هؤلاء القوم أغبى ممَّا يتصور، دائماً ما يقول لنفسه هنا، يتساءل في حيرةٍ:

- لو لم يكونوا على قدرٍ عالٍ من الغباء المستحكم لما استطاع دكتور «أبو المجد» أن يفرَّ من بينهم حاملاً معه أوراقاً تكشف شبكة الجاسوسية الخاصة بهم التي غرسوها في الوطن العربي، ولم يتوقف عند هذا الحدّ بل ظلّ سنواتٍ عديدةً يُكوّن في شبكةٍ مضادةٍ من جميع الأراضي العربية حتى وصلنا إلى هذه المرحلة التي وقعَتْ فيها شبكتهم الحالية مع كلِّ تطورها وهيمنتها، وقعَتْ جميعها في قبضة أيدينا.

****

أخرج هاتفه من جيبه، لم يتَّصل دكتور « أبو المجد « بعد، إذنْ فالخطّة كما هي، شرد بذاكرته قليلاً، كان من المفترض أن يكون دكتور « سالم عبد الرحمن « هو مَن يدير هذه العملية الآن بدلاً من مراد، تلقَّى مراد اتصالاً منذ بضعة أشهر من الدكتور « أبو المجد « يخبره بطريقةٍ مشفرةٍ أنَّه سيقوم بتولّي المهمة بدلاً من دكتور « سالم»،

تسارعت العديد من السيناريوهات على عقل «مراد»، احتمالات عديدة لم يكن من بينها أن يختلف الصديقان ولا أن يتمَّ اغتيال دكتور «سالم»، وفي اليوم التالي نزل خبر مقتل دكتور «سالم» كالصاعقة عليهم جميعاً، وكان بمثابة طفرةٍ تنذر بوقوع كارثةٍ كبرى، فمقتل «سالم» يعني أنَّ الغطاء قد انزاح من فوق رؤوسهم وأصبحوا في الخلاء.

الساعة الآن الثانية إلا ثلاث دقائق، اعتدل الجميع وثبتتْ أعينهم على الشاشات، أكاد أجزم أنَّ أحداً منهم لم ينخفض له رمشٌ، صمتٌ مطبقٌ، لا يقطعه سوى طنين الأجهزة فيما زاد الأمر توتراً، لم يلتفت أحدهم لقطرات العرق التي أغرقَتْ وجهه على الرغم من انخفاض درجة حرارة القاعة، دقيقتان وعشر ثوانٍ، دقيقتان فقط، كلّ ما يتمنّونه الآن ألّا يكون هناك أيّ مفاجآتٍ لهم، دقيقة وثلاثون ثانية، صوت نبضات قلوبهم تكاد تغطي على أصوات طنين الأجهزة، دقيقةٌ واحدةٌ، ربما بال أحدهم في سرواله الآن، انتهى كلُّ شيءٍ وكلُّ العناصر آمنةٌ،

أهـذاً حـدث حقًّـاً؟؟!

كل العناصـر قد أعطَتْ إشـارة إتمـام العملية بنجاحٍ، لكنهم مازالـوا غيـر مصدّقيـن أنَّ هـذه اللحظـة قد أتَتْ وتمَّتْ أيضـاً.

ثمَّـتَ شـيءٌ لا يصـدّق فـي هـذا كلـه، أو ربمـا كان هنـاك سـببٌ آخـر يقلقـه.

هـل يكـون لعـدم اتصـال دكتـور «أبـو المجـد» بهـم يـدٌ فـي نظـرات الخـواء التـي تطـلُّ مـن أعينهـم، حـلَّ الظـلام علـى الشاشـات التـي أمامهـم ولـن يسـتطيعوا معرفـة مـا يجـري فـي تلـك المواقـع الآن، وقـد كانـت تعليماتهـم بـأن يتـم انتـزاع الكاميـرات مـن مسـرح الجريمـة عقـب إتمـام المهمَّـة مباشـرة،هو مسـرح، دعنـا نتفـق علـى ذلـك، ولكـن هـل هنـاك جريمـةٌ بالفعـل؟!

فكَّـر «مـراد» فـي أنَّ الجريمـة الحقيقيـة قد تمَّتْ منذ عشـرات السـنين وليس الآن.

لـم تمـرَّ سـوى سـاعةٍ واحـدةٍ فقـط وخـرج إعـلام كلّ دولـةٍ ينعـي فقيده.

رجل أعمالٍ يُقتَل في غرفة نومه، حالة تسمُّمٍ تودي بحياة دبلوماسيّ كبيرٍ ليسقط صريعاً في الحال، حادث سيرٍ ينهي حياة نائب رئيس الوزراء، اختفاء طائرةٍ خاصةٍ تحمل عدّة رجالٍ من ذوي السُّلْطة، أحدهم يشجب وآخر يندّد، ونصبت موائد التحليل والتخيّل التي امتلأت بأصحاب النظارات الطبية والكروش المتدلية، وأخيراً وليس بآخر «اجتماعٌ عاجلٌ في تل أبيب يجمع عدداً من رجال المجتمع الإسرائيلي ورجال الشباك وكبار الحاخامات».

****

(١٩)

للمرة الأولى تزدحم شقة دكتور «عزّ» بهذه الطريقة، فريق من البحث الجنائيّ، وعدد من رجال الشرطة والصحافة التي أخذَتْ عدَّة لقطاتٍ لكل ركنٍ داخل الشقة وإن كان بعيداً عن مسرح الجريمة، لا أعلم العلاقة التي تجمع بين صورة «نيتشه» المعلقة بغرفة المكتب والتحف الثمينة وبجريمة قتلٍ تمَّتْ في غرفة النوم وعلى سرير القتيل.

دعكَ من هذا، ما يشغل بالي وبالكَ أيضاً ـ وأنا واثق من ذلك ـ ما الذي أخبرهم بأنَّها جريمة قتلٍ من الأساس، وليس هناك قطرة دماءٍ واحدة ولا أثر لأيِّ فوضى في المكان؟!

هل يُعَدُّ تحطم زجاج النافذة سبباً كافياً للحكم بأنَّها جريمة قتلٍ؟!، كلُّ ذلك لا يهمُّ، فصفحات الجرائد الآن تضجُّ بسؤالٍ واحدٍ فقط: ما السبب الذي فقد دكتور «عزّ»

حياتـه مـن أجلـه؟

أنـا وأنـت فقـط مَـنْ نعـرف القاتـل، ولا شـكَّ أنَّنـا لـن نتحـدَّث، لكـن اقتـرب منّـي الآن كـي أهمـس فـي أذنيـكَ، إذا كان دكتـور «عـزّ» قد تواطأ مـع «أبـو المجـد» لخـداع القاتـل، فمـا الـذي يُوجَـد بـالأوراق إذنْ؟، احتفظ بهذا السؤال معـي، ومـن الأفضـل لنـا أن يبقـى سـرًّا، فلسـنا طرفـاً فـي اللعبـة علـى أيِّ حـالٍ.

كثرت الأسـئلة والإجابـة واحـدةٌ: الصمـت، لا أحـد يعلـم مـاذا فعـل «عـزّ» حتـى يلقـى هـذا المصيـر بميتـةٍ دنيئـةٍ هكـذا.

ظلَّـت الحيـرة تقـذف حِمَمهـا علـى الجميـع باسـتثناء «أبـو المجـد» الـذي كان شـارداً بعيـداً جـداً، هنـاك فـي جريمـةٍ أخـرى أكثـر بشـاعة تتـمُّ الآن.

****

(٢٠)

اتَّسعَتْ أعين الضابط اندهاشاً من إجابة «نضال»، ما معنى ذلك؟!

كان ينتظر منه أن يقول: «لا أعلم»، «قتلَها فلانٌ على الأرجح»، أن يصمت، أو ينهار باكياً، لكن أن يكون الجواب «أنا»، لقد كانَت هذه أكبر مفاجأةٍ يمكن أن يتلقَّاها الضابط في هذه القضية.

تلعثم الضابط، وأخذ يدور بعينيه في المكان بحثاً عن كلماتٍ تليق بإجابة «نضال» التي خرجَتْ بمنتهى الجدِّية ممَّا يسدُّ الطريق أمام أيِّ احتمالٍ لأن يكون صاحبها يهذي.

حاول أن يستجمع شتات الكلمات التي ارتدَّتْ عائدةً إلى حلقه قبل أن تلتقطها شفتاه، فاعتدل في جلسته وهو يقول:

- أعلم أنَّ الوضع صعبٌ، وأنَّكَ في حالةٍ لا تُحسَد عليها، ربَّما ترى نفسك مسؤولاً؛ لأنَّكَ تركتَها بمفردها، لكنَّ ذلك لا يعني أن تحمِّل نفسكَ جريمةً مثل هذه.

تنهَّد بعمقٍ ومال نحوه ثم تابع:

- نضال، أنتَ مازلتَ شابًّاً في مقتبل العمر، وهذا قانونٌ لا يحتمل أيَّ مشاعر ولا عواطف مثل تلك، ثق أنَّنا قادرون على الإمساك بالقاتل ومعاقبته بالعقوبة التي يستحقُّها.

أجابه وعيناه شاردتان في الفراغ:

- لقد أمسكْتَ به بالفعل، فها أنا أمامكَ الآن.

كان الصمت هو سيِّد الموقف، وعقل كلٍّ منهما يدور في فلكٍ غير فلك صاحبه.

أخذتْ ذاكرة «نضال» تئنُّ بأحداثٍ وقعَتْ منذ بضع ساعاتٍ عندما كان بالمكتبة بصحبة دكتور « أبو المجد ».

كان الأول يقف خلف أرفف المكتبة مختبئاً خلف الكتب

يتابع بعينيه ذلك الأستاذ الجامعي وهو يتحدَّث بحماسٍ وصوتٍ منخفضٍ مع فتاةٍ لم يستطع أن يتبيَّن ملامحها جيِّداً، ثم رآها وهي تعطي له ورقةً مطويَّةً وضعها هو في جيبه دون أن يفتحها، لابد أنَّه يعلم ما بها.

تحدَّث إليها قليلاً ثم انصرفَتْ هي من الجهة الأخرى دون أن يستطيع هو أن يتبيَّن ملامحها.

رفع «نضال» الهاتف إلى أُذنه ثمَّ قال باقتضابٍ:

- ألو، اتبع الفتاة التي خرجَتْ من المكتبة الآن، لديها الكثير.

ليته تتبَّعها هو، ليته علم أنَّها «سمر».

****

(21)

ألقَتْ بالأوراق في وجهه وهي تطلق سبَّةً عاليةً، كانَتْ غاضبةً لدرجةٍ لم تفلح ضخامة جثة ذلك الرجل الأصلع الواقف أمامها في إيقافها.

هتفَتْ بغضبٍ عارمٍ:

- أيها الأحمق اللعين، أيُّ هراءٍ ذلك الذي جلبته لي؟، أحقاً تظن أنَّني أبعثكَ في مهمَّةٍ هكذا حتى أحصل على ذلك؟

قالَتْها وهي تشير بيدها إلى الأوراق الملقاة على الأرض، اقتربَتْ من الرجل مندفعةً وقد تصاعدَتْ شحنة الغضب بداخلها، فالتقطَتْ سكيناً كانتْ مستقرةً على المائدة بجوار طبقٍ من الفاكهة، أمسكَتْ بأهداب قميصه وهي تصيح:

- من اليوم لن أسمح لأمثالكَ من الحمقى المتخلفين

بالعمل معي، بل لن أسمح لكم بالعيش، قالَتْها وهي تغرز نصل السّكّين في بطنه فاندفع الدم كشلّالٍ غاضبٍ، فيما أسرع « عزيز » نحوها مصدوماً من هول المفاجأة فلم يتخيّل أن يصل بها الغضب إلى هذا الحدّ، في حين ظلَّتْ هي توجّه سهام نظراتها الغاضبة إلى أعين الرجل الأصلع التي غادرَتْها الحياة للأبد.

أمسك «عزيز» بكتفي «صوفيا» يجرُّها للوراء مبتعداً عن جثة الرجل الملقاة على الأرض، ثم صرخ فيها قائلاً:

- هل جننتِ؟، لماذا فعلتِ ذلك؟، من أين له أن يعلم ما نريده؟

صرخَتْ في وجهه بهستريا:

- هذا الأحمق لا يستحقُّ العيش، بعثناه ليسرق الأوراق التي تتضمَّن خطة « أبو المجد « من منزل «عزّ» فأتى إلينا ببحثٍ في تاريخ الفلسفة.

صمتَتْ قليلاً ثم أردفَتْ وقد هدأت نبرتها قليلاً:

- لقد خدعنا «أبو المجد» ثانية.

يبدو أنَّ قواها قد خارَتْ فألقت بجسدها على الكرسيِّ

وهـي تزيـح خصيـلات شـعرها الأشـقر عـن وجههـا:

- يا إلهي، ماذا سيحدث الآن؟

رفعَتْ وجهها نحو «عزيز» وهي تقول مستنجدةً به:

- ماذا سيحلُّ بنا إن علم رجال الشباك بما حدث؟.

كاد «عزيـز» ينطـق فاسـتوقفته نغمـةٌ عاليـةٌ تصـدح مـن هاتفـه، احمـرَّ وجهـه بمجـرّد رؤيـة اسـم المتّصـل علـى شاشـة الهاتـف، ابتلـع ريقـه فـي ضجـرٍ، ثـم تنقَّـل ببصـره بيـن «صوفيـا» التـي كانَـتْ تحـدّق فيـه بدورهـا وبيـن شاشـة الهاتـف، وضـع الهاتـف علـى أُذنيـه لبضـع لحظـاتٍ، ثـم أغلقـه دون أن ينبـس ببنـت شـفةٍ.

طال الصمت بينهما إلى أن قطعه هو قائلاً:

- يجب أن نعود إلى بريطانيا اليوم.

كانت تنظر إليه بعصيانٍ فصرخ فيها قائلاً:

- علـى الأقـلِّ يجـب أن نغـادر هـذه الشـقة قبـل أن يكتشـف أحـدٌ أمـر هـذه الجثـة.

****

(22)

شاشة تلفازٍ كبيرة يظهر عليها عدَّة لقطاتٍ من أماكن متفرقةٍ، أشخاص مختلفة، وحوادث مختلفة، يتفقون في موعد الوفاة، وأنَّ جميعهم يمثلون أهميةً عظمى لبلادهم، لكن ليس هذا السبب الذي خرج علينا من أجله المحلِّل السياسيّ في أحد البلدان العربية وهو يقول فرحاً:

- إنَّ الكارثة التي وقعَتْ صباح اليوم لم تكن أبداً من قُبيل المصادفة، وإنَّما هي خطة مُحكمةٌ لضرب إستراتيجية إسرائيل.

قاطعَته المذيعة معتذرةً:

- لكن ما علاقة ذلك بإسرائيل؟، فلم يتمّ الاعتداء على معسكرات إسرائيل ولا ضرب أيٍّ منشآتٍ لها.

اعتدل في جلسته وهو يصيح كمَن يعلم أسرار الكون:

- كيف والعامل الرئيسيّ الذي يجمع كلّ هؤلاء القتلى هو أنَّهم جميعاً لهم جنورٌ إسرائيليةٌ؟!

أنهى جملته وهو يضرب بقبضة يده على المنضدة التي أمامه، ظهر الاندهاش على وجه المذيعة وهي تقول في تساؤلٍ واستغرابٍ:

- جميعهم؟!

فأجاب ضيفها في حماسٍ:

- جميعهم بلا استثناءٍ.

عدلت المذيعة سماعة الأُذن الصغيرة وهي تقول موجهةً حديثها للجمهور:

- أعزائي المشاهدين، فاصلٌ قصيرٌ وسنعود إليكم مع المحلّل السياسيّ «شريف مرجان» وحلقة ساخنة حول قضية مقتل قياداتٍ عُليا في الوطن العربيّ، فاصل قصير ونعود إليكم.

ظهرَتْ ابتسامةٌ ساخرةٌ على جانب شفتي «مراد

الحسيني» وهو يغلق التلفاز متجهاً إلى غرفته.

وقف أمام خزانة ملابسه التي وُضِع عليها قفلٌ صغيرٌ، فتحها بتردُّدٍ، ثم أخرج منها ظرفاً أصفر كبيراً، جلس على طرف السرير وهو ينظر للظرف بحنينٍ وشغفٍ غريبٍ تلمع به عيناه.

فضَّ محتويات الظرف برفقٍ، وأخرج منه مجموعة من الأوراق الكبيرة، كانت حروفها قد اهترأتْ والرسومات باهتة، لكنه ما إن أمسكَ أوّل رسمةٍ حتى فاضت عيناه بالدمع، وتردَّد في أُذنيه صوت والده وهو يعطي له هذا الظرف منذ أن كان عمره خمسة عشر عاماً:

- هذه الصور هي تاريخكَ يا بنيّ، رسمَها جدّي وهو طفلٌ صغيرٌ، وقد كان لا يستطيع النطق فأطلق ليده العنان كي تسجّل لنا المأساة التي كانت السبب في دمارنا لسنواتٍ طويلةٍ.

صمت قليلا ثم استطرد:

- لقد بدأتْ مأساتنا منذ منبحة الإسكندرية التي عاصرها الجدّ الأكبر «عبد الباسط».

إسكندرية، الأحد ١١ حزيران ١٨٨٢ م

كانت الشمس قد سلَّطتْ وجهتها على المنطقة الأوروبّية بمدينة الإسكندرية، رائحة القهوة تعبّق شارع السور العريض بعد الثانية ظهراً، فأشارَ الرجل الغربيّ إلى الصبيّ المكاري بالتوقّف أمام مقهى يحمل لافتةً بيضاء كتب عليها بخطٍّ منمّقٍ (مقهى كوات الكزاز)، أخرج الرجل من جيبه عملةً نقديةً أعطاها للصبيّ، فنظر إليها الصبي بضيقٍ وهو يقول:

– ليس هذا ما اتفقنا عليه سيدي.

نظر الرّجل إلى الصبيّ باشمئزازٍ، ورفض أن يعطيه أكثر، اشتدَّ النقاش بينهما، وارتفعَتْ أصواتهما فهرع الرجل إلى داخل المقهى وأمسكَ بسكينٍ كانَتْ تُستعمَل لقطع الجبن وطعن بها الصّبيَّ، فانفجر الدم يروي عطش أرض عروس البحر المتوسط.

سرعان ما تجمَّع عددٌ من أهالي الإسكندرية حول الصبيّ، وأمسك أحدهم برأسه وهو يصرخ باسمه « عجاااان «، أسرع اليونانيّون الذين يعملون بالمخبز المجاور يجرُّون نحو المقهى الذي تحوّل إلى ساحةٍ للمعركة بين أهالي الإسكندرية وبين ذلك الرجل الغريب مجهول الهويّة الذي لم يستطع الفرار من بين أيديهم حتى انضمّ إليه اليونانيون ومعهم شرطيٌّ إيطاليٌّ، وأطلقت الأعيرة النارية من النوافذ الخشبية العليا للبيوت المجاورة التي يمتلكها الأوروبّيون، وما هي إلَّا دقائق معدودة حتى اندفع الأهالي الغاضبون إلى الشارع حاملين العصيّ.

تحوَّل شارع السّور العريض لبركةٍ من الدماء المختلطة التي تمزج بين عدة جنسيّاتٍ مختلفةٍ، واستمرت المعركة بإصرارٍ من المصريين للانتقام لمقتل « العجان « حتى السابعة مساءً.

كان «عبد الباسط» صاحب مقهى «الأسرة» الذي يقع في نهاية شارع السور العريض، قد دخل بيته مترنّحاً

كالمخمور، يجرُّ قدميه وكلّ خلجةٍ بوجهه تنضح ألماً، استقبلته زوجته وهي فزعةٌ من هيئته وجلبابه الممزّق والدماء التي تغطّي وجهه، ضربَتْ بيدها على صدرها ثم أمسكَتْ كتفيه حتى جلس على أريكةٍ خشبيةٍ، أسندَتْ رأسه على الحائط وهي تنادي على حماتها التي قدمَتْ إليهما تجري وهي تطلق همهماتٍ غير معروفةٍ.

****

كان الليل قد أسدل ستائره ولفّ المنطقة بردائه، المنازل ساكنةٌ تماماً والشوارع خاليةٌ إلَّا من عواء الكلاب الضالة، بدأ عبد الباسط يستعيد وعيه بعد محاولاتٍ عديدةٍ من زوجته وأمّه لإفاقته، فتح عينيه ببطءٍ، كانت الرؤية ضبابيةً بعض الشيء، ثوانٍ معدودة وبدأ الضباب يتلاشى وتتضح الرؤية وما إن استعادَتْ ذاكرته ما حدث حتى أغلقَ عينيه بألمٍ وهو يمسك رأسه في حسرةٍ.

صمت للحظاتٍ قبل أن يسرد ما حدث بالتفصيل لزوجته وأمه اللتين أطلقتا وابلاً من السباب والشتائم في حق الإنجليز وأعوانهم، كان لون الدماء يلاحق مخيلة « عبد

الباسط « كلَّما حاول إغلاق عينيه، لم يكن الأمر هيّناً فقد تحوّل شجارٌ صغيرٌ إلى منبجةٍ كبيرةٍ مات فيها أكثر من خمسين شخصاً من بينهم صاحب المخبز المجاور لمقهى (كوات الكزاز)، ابتلع ريقه بصعوبةٍ وهو يقول:

- لم تكن الكارثة في خسارة الأرواح فحسب، فقد دمرت المقاهي ونهبت الحوانيت.

نظرَتْ إليه زوجته بترقّبٍ وهو يكمل قائلاً وقد خفض رأسه أرضاً:

- حتى المقهى الخاصّ بنا دُمِّر بالكامل ولم يعد يصلح لأيِّ شيءٍ.

وما إن أتمَّ جملته حتى أُطلقَتْ صرخةٌ مدويةٌ من حلق زوجته كأنَّها كانَتْ إشارةً إلى كلاب الحيّ كي يبدأوا بوصلةٍ طويلةٍ من النُّباح.

****

بدا «كلادستون» غاضباً وهو يقرأ تقرير صحيفة «بال مال» البريطانية التي تناولت خبر منبجة الإسكندرية

بدرجةٍ عاليةٍ من الهدوء وأعطَتْ قراءها شرحاً يتسم بتمام الصدق في اليوم التالي للمذبحة، لكن نوبة غضبه بدأَتْ تزداد مع قراءته لمقالةٍ أخرى في مجلةٍ رئيسيةٍ تناولَتْ نفس الموضوع في الثالث عشر من حزيران حيث بدَتْ واضحة الميل للجانب المصريّ بصورةٍ عامةٍ.

«حينما نتحدّث عن السكان الأوروبيّين في مكانٍ ما، فإنّنا هنا في وطننا نعتقد أنّهم إنكليز، أو على الأقلّ فرنسيّون، أو ألمان.

إنَّ عقولنا ترسم صورةً لشخصٍ محترمٍ يرتدي سترة الصباح مزررة بصورةٍ تامةٍ حول صدره، ومرتدياً قبعة سوداء وحاملاً مظلة، وعندما نسمع بعد ذلك عن اضطرابٍ بين العرب وبين السكان الأوروبّيين في الإسكندرية، فنحن على استعدادٍ لأن نقفز إلى استنتاج في أنَّ الأمر يجب أن يكون صراع متوحشين أنصاف عرايا من جهة، ورجالنا حَسَنَي اللباس ولطيفي المسلك من مواطنينا من الجهة الأخرى، بينما تُوجَد أعدادٌ كبيرةٌ من أوحش المشاكسين، وأغرب أوغاد المدن الكبرى، وأكثر

الخارجين عن القانون فظاظة من الهجناء، ومن أصولٍ لا يمكن تحديدها، يدعون أنهم أوروبيون .

وسوف يكون إصدار الحكم لهذا السبب قاسياً بالنسبة للقراء».

ما إن انتهى «كلادستون» من قراءة المقالة حتى ألقى بالجريدة أرضاً وهو يسبُّ ويلعن الصحافة في بريطانية.

ومن بعدها بدأ لتخطيطٍ لهدفه الأكبر.

****

مرَّ حوالي شهرٍ على هذه المذبحة فقدَتْ خلاله عائلة «عبد الباسط» الكثير من أملاكها من أجل الحصول على قوت يومها بعدما دُمّر مصدر رزقها الأساسيّ، ولم يكن ذلك حال عائلة «عبد الباسط» فقط، بل ألمَّت الفاجعة نفسها بمعظم عائلات الحيّ الأوروبّي بالإسكندرية.

ولم تلبث الأوضاع أن تهدأ قليلاً حتى اتسعَتْ رقعة البؤس لتشمل الإسكندرية كلها.

استيقظ أهالي الإسكندرية على صوت انفجارٍ قويٍّ دوَّى في أرجاء الإسكندرية بدلاً من صوت ارتطام مياه البحر بالشطّ كما اعتادوا دائماً، حالة من الفوضى سادَتْ معظم أنحاء الإسكندرية والنساء يجريْنَ في الشوارع وهنَّ متدثراتٌ بعباءتهن السوداء، حتى اللواتي لم يسمعْنَ صوت الانفجار، في حين أسرع الرجال والفتيان نحو السواحل التي قصفها الأسطول البريطاني، واشتعل فتيل الأزمة من جديدٍ بين أهالي الإسكندرية والأوروبّيين المقيمين بها، كانت النيران قد تأجَّجَتْ في قلب «عبد الباسط» من جديدٍ، وبدأ الجميع ينظر للأمر على أنّه الحرب، وانتشرَتْ عمليات الكرِّ والفرِّ في معظم شوارع الإسكندرية، قتلى ومصابون يتساقطون واحداً تلو الآخر، ولم تطل يد «عبد الباسط» واحداً من الأوروبيين إلّا تركه من خلفه غارقاً في دمائه.

****

(23)

وقف «أبو المجد» أمام مكتبة «عزّ» يكاد يشعر بهمسات ذلك الرجل بين أرفف المكتبة، يسمع أنين الكتب حزناً على فراق رفيقها، قديماً سمع أنَّ الكتب خير رفيقٍ، ولكنّه لم يتخيّل أن تكون هي أصدق بكثيرٍ من «أبو المجد» ناته.

يشعر أنَّ باخله فوضى عارمةً، أخذ يحدّق في الكتب بذهولٍ وهو يعدل نظارته، هل هي حقّاً تبغضه؟، اقترب منها أكثر كمَنْ يهمس لها في صمتٍ، هل حكى لكم صاحبكم ما حدث؟

يعلم جيّداً أنَّ «عزّ» لم يأخذ من هذه الدنيا شيئاً سوى هذه المكتبة، ولكنه لا يتصوّر أن يحكي لكتبه عن الاتفاق الذي جرى بينهما، لابدَّ من أنّهم نهروه بشدةٍ كي يتراجع

عن قراره، سخر من نفسه للحظةٍ وهو يعدل نظارته، لا يمكن أن يكون هذا قد حدث، وإن كان فالكتب لا يمكنها القيام بأيِّ ردِّ فعلٍ على الإطلاق، سمع صوت نفسه وهي تتعجّب منه قائلةً:

- أنتَ الذي تعرف جيّداً إلى أيّ مدى يمكن للكتب أن تسلّط نفوذها على عاشقيها، بل إنَّكَ تعرف جيّداً أنَّ هذا الاتفاق كانت الجمادات سترفضه لو عُرضَ عليها.

ردَّ على نفسه مدافعاً:

- كلّ الكون بإنسه وجنّه وجماداته يمكنه رفض هذا الأمر إلا أنا.

لم أكن أملك رفاهية الاختيار من الأساس.

قهقهة عالية أطلقها صدى نفسه ساخرةً:

- لم تكن تملك رفاهية الاختيار أم أنَّ هذا الخيار أصبح سهلاً جدّاً بالنسبة لك؟، إنّها ليسَت المرة الأولى ولا الأخيرة على أيِّ حالٍ.

خفض رأسه أرضاً وخرج مسرعاً نحو سيارته فقاطعه وكيل النيابة قبل أن يخرج من المنزل.

****

(24)

أخـذَتْ «صوفيـا» تحـزم حقائبهـا بضجـرٍ ظهـر فـي نبـرة صوتهـا وهـي تجيـب علـى الطـارق الـذي قـرع بـاب غرفتهـا بالفنـدق:

- مَنْ؟

أتاها الصوت من خلف الباب:

- أنا « عزيز» يا «صوفيا».

فتحَـت البـاب بتأفُّـفٍ دون أن تنطـق بكلمـةٍ واحـدةٍ ثـم أدارَتْ ظهرهـا وعـادَتْ تجمـع أشـياءها مـرةً أخـرى.

جلس «عزيز» على حافة السرير، صمتَ قليلاً ثم قالَ:

- الطائـرة سـتقلع فـي تمـام التاسـعة، لابـدَّ أن نكـون بالمطـار بعـد سـاعتين.

لم تجب فاستطرد قائلاً بضيقٍ:

- ـ نعَم يا «صوفيا»، نحن فشلنا تماماً، لقد فاز «أبو المجد» علينا، ويجب أن نعترف بذلك، كلّ ما يهم الآن هو أن نفكّر في حيلةٍ ما نخرج بها من هذا المأزق عندما نلتقي بهم، أنتِ تعلمين جيّداً أنّ هذا الأمر لن يمرّ بسلامٍ.

شردَ قليلاً وهو يقول:

- لقد كانَتْ ضربةً عنيفةً، تحتاج إسرائيل إلى وقتٍ كبيرٍ لزرع شبكةٍ أخرى غير التي دمرَّها ذلك اللعين «أبو المجد»، لقد كان يخطِّط كلَّ هذه السنوات لقصم ظهورنا دون أن ندري حتى عندما اكتشفنا أنَّ هناكَ شخصاً ما يُهدِّد أمن إسرائيل لم يخطر ببال أيٍّ منَّا أن يكون هو المُدبّر الرئيسيّ لهذا الأمر.

جلسَتْ صوفيا بجانبه في هدوءٍ ورسمَتْ ابتسامةً على جانب شفتيها وهي تقول:

- ألم يقل لكَ أنَّه سيأتي اليوم الذي تتمنَّى فيه لو

أنَّنـي قتلتـكَ فـي تلـك الليلـة؟

هبَّ من مكانه واقفاً وهو يقول بغضبٍ:

- أنتِ تمزحين يا «صوفيا»؟

- لستُ بمازحـةٍ «عزيـز»، أنـا فقط أُنكِّركَ بـأنَّ هـذا العربي فعل معنـا مـا لـم تفعلـه بريطانيـا أو إسـرائيل.

قطَّب جبينه باستفهامٍ فاستطردَتْ قائلةً:

- لقد وعـد «أبـو المجـد» بتدميرنـا، وقد أنجـز وعـده وسلَّم رقابنـا علـى طبـقٍ مـن ذهـبٍ لمَـنْ لا يرحـم، ولكـن عندمـا وعدتنـا بريطانيـا بـأن يكـون لنـا وطننـا فـي فلسطين لـم نأخـذ مـن وعدهـم سـوى مكـو ثٍ صـوريٍّ لـم نهنـأ فيـه بلحظـةٍ واحـدةٍ.

وإسـرائيل نفسـها التـي وعدَتْنـا بالحمايـة ونحـن نعمـل مـن أجلهـا لأكثـر مـن عشـرين عامـاً هـي نفسـها التـي نرتجـف منهـا خوفـاً الآن.

الرجـل العربـيّ كان هـو الأصـدق فـي تهديده، هـو الأصدق علـى الإطـلاق يـا عزيز.

صمتَ «عزيز» للحظاتٍ يبحث بداخله عن أيِّ ردٍّ يخمد به تلك النيران التي أشعلَتْها «صوفيا» بداخله، فلم يجد سوى أن يجيبها بسؤاله عندما رآها تخرج من باب الغرفة:

- إلى أين؟

- سألتقي به للمرَّة الأخيرة.

****

(25)

لملمَ مراد الأوراق واتّجه بها ناحية المطبخ، كان يسير بخطواتٍ متثاقلةٍ لكنها واثقةٌ كأنَّما يخبركَ أنَّ الشيء الذي سيقوم به الآن ثقيلٌ على نفسه لكنَّه مجبرٌ على فعله ولا فرار.

أشعل نيران البوتاجاز وأمسكَ بطرف الأوراق يحرق ماضياً لن تأكله نيران، وفي الوقت نفسه لن تكون برداً وسلاماً عليه، ستحوّله إلى كومةٍ من الرماد تذروها الرياح، لكنّه سيظلُّ يحرق كل حلق قابله.

تابع النيران تخمد كلّ صدى صوت أبيه في أُذنيه لم يتوقف.

****

جلس عبد الباسط على أحد المقاهي في الإسكندرية

وقد أصابها الشُّحُّ فلم تعد مأوى لراحة الناس بعد عناء يومٍ طويلٍ كما كانَتْ منذ أشهرٍ قليلةٍ، بل أصحبت مجلساً لتبادل الخيبات وتسكين الجروح بالكيّ بالنار.

كعادة أيِّ بلدةٍ عربيةٍ يتراقص أهلها دائماً على سيمفونية الأوضاع السياسية والاقتصادية، فليس كلٌّ يبكي على ليلاه، بل هنا لا توجد سوى ليلةٍ واحدةٍ فقط تضيق صدورهم منها ولا ترى العيون جميعها سوى رؤيةٍ واحدةٍ في اليقظة والمنام «الاحتلال يدق الأبواب»، هذا هو الهاجس الذي ضرب مدينة الإسكندرية على وجه التحديد، فالجميع يقسم أنَّ الاحتلال أقرب إليهم من التقاط أنفاسهم، ولا نامَتْ عين رجلٍ منهم إلا وهو يتوقّع أن يفتحها على هزةٍ عنيفةٍ من بندقيةٍ تصوب فوهتها نحو رأسه.

استقرّ اللـيُّ بين شفتي «عبد الباسط» وهو يستمع لصديقه الصعيدي وهو يجلس بجواره يحكي لهم عمَّا أصاب الجميع بالفزع أكثر ممَّا كانوا عليه، فذلك الأسمر القصير القامة يحكي لهم عن جاره البريطانيّ الذي رآه يتسلَّل ليلاً إلى الحارة المجاورة وهو يلفُّ شالاً حول

رقبتـه، ووجـه ولا يظهـر منـه سـوى عينيـه فقـط، فتبعـه بحـذرٍ إلـى أن رآه يقابـل ذلـك التاجـر اليونانـيَّ الـذي يقطـن فـي المنـزل المجـاور لـ «عبـد الباسـط»، تحدثـا قليـلاً ثـم أعطـى ذلـك اليونانـي للرجـل البريطانـي مسدسـاً وبندقيـة دسّـهما الرجـل فـي ملبسـه وانطلـق عائـدا بحـذرٍ إلـى منزلـه.

شـرد «عبـد الباسـط» بخيالـه للحظـاتٍ ولازال الليُّ مسـتقراً فـي فمـه قبـل أن ينزعـه الرجـل القصيـر من يـده دون أن يصدر أيّ ردّ فعـلٍ مـن «عبـد الباسـط»، ثـم أخـذ عبـد الباسـط يـرى المسـتقبل نصـب عينيه.

- إذا صدقـت هـذه الأقـوال التـي تقـول إنَّ البريطانييـن قـد بـدأوا يسـتوردون السـلاح مـن اليونانييـن ومـن السـلاح المهـرب مـن الأسـطول البريطانـي هـذا يعنـي أنَّ الخطـر لـن يكـون مـن جنـديٍّ مسـلحٍ فقـط، بـل مـن كلِّ فـردٍ أوروبّـيّ يختبـأ بيـن المصرييـن كالحشـرة السـامة.

انتهـى «عبـد الباسـط» مـن حديثـه مـع نفسـه فـور أن رأى «محمـد أفنـدي» الـذي يعمـل بشـكاتب فـي المحكمـة يمـرّ مـن

أمامهم وهو يلقي عليهم سلاماً عابراً:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، محمد أفندي.

ردَّ «عبد الباسط» السلام وهو يلحق بالرجل منادياً عليه، فتوقف الرجل وهو يقاوم حالة التعب التي أحلَّتْ به بعد عناء يومٍ طويلٍ.

- إنيك يا «عبد الباسط».

- بخير يا محمد أفندي، كنت عاوز أسألك في حاجة كدا.

- خير يا «عبد الباسط»؟

- ألّا هو مافيش أخبار عن البلد، قصدى أخبار تطمن يعني.

- والله يا عبد الباسط كل اللي أعرفه إنّ القنصل السويدي «بودتكر» راح للقنصل البريطاني وحذّره من أنّه يقوم بأيّ عمل يزيد الحالة سوء، وأنت عارف إحنا هنسكت لحد مانلاقيهم بدأوا يتحركوا.

هزّ «عبد الباسط» رأسه متفهماً، ثم عاد إلى مجلسه

ينفث دخانه من جديدٍ.

****

في صباح اليوم التالي خرج «عبد الباسط « من منزله وهو يفرّ من حديث زوجته التي أخذَتْ تطلق الويلات والحسرات على مستقبل ابنها الوحيد وهي لا تستطيع أن تدفع نفقة علاجه، وسيظلّ يعاني من فقدان النّطق إلى أجلٍ غير مسمًّى، وهي تجلس على شرفة المنزل الخشبية تتطلَّع للشارع بأسى، وهي تعبث بشعر ابنها النائم بجوارها.

خرج بحثاً عن شقّ يصبُّ فيه خيبته وغضبه الذي أصبح ملازماً له بعد أن عجز عن استعادة المقهى الخاص به.

أخذ يضرب الأرض «بنبوته»، تجوَّل في الشوارع فيما يزيد عن ساعتين، في كلّ دقيقة كان يزيد غضبه عمَّا قبلها، لاحظ النظرات المحتدّة التي يتبادلها أهالي الإسكندرية مع السكان الأوروبّيّين، كلٌّ منهم يتربّص

بالآخر وينتظر منه كلمةً واحدةً كي يذبحه كالدجاجة التي تملأ الدنيا صخباً، ثم تستسلم في النهاية للسكين.

خلال سيره على قدميه اللتين أكلَت الأرض منهما حتى شبعَتْ، رأى «تشارلس كوكسون» القنصل البريطانيّ وهو يستقل سيارةً بصحبة موظفٍ مصريٍّ يرتدي البزّة الرسمية، وقد كان متجّهاً نحو قسم الشرطة، لا يعلم ماذا حدث تحديداً قبل أن يلتفَّ جمعٌ من أهالي الإسكندرية الغاضبين حول العربة التي تنقل «كوكسون» ويرمونه بالحجارة، توقَّفت السيارة، وأخرجوا «كوكسون» منها ورموا به أرضاً، لم يكن «كوكسون» مسلحاً في هذا الوقت لكنه دفع برجُلٍ مسنٍّ فألقى به تحت قدمي «عبد الباسط»، لم يشعر عبد الباسط بنفسه إلَّا وهو ينهال بعصاه ضرباً على رأس «كوكسون» فسقط مغشيَّاً عليه.

****

لم يمت «كوكسون».

مشاعر متضاربة تتلاعب بـ«عبد الباسط» حينما سمع

ابن عمِّه يخبره بصوتٍ خافتٍ أنَّ «كوكسون» لم يمُتْ من ضربته كما توقَّع هو، بل كان مجرّد إغماءةٍ ذهب بعدها إلى مركز الشرطة ومعه الموظف المصريّ الذي وشى بـ «عبد الباسط»، هل كان يتمنَّى موته بالفعل أم أنَّه فرح؛ لأنَّه سينجو من عقوبة قتله؟

كل ما يعرفه أنَّ عقوبةً ما في انتظاره الآن،لمعَتْ برأسه فكرة الهرب، فلم يُعاقَب سوى الجناة، وقد عاش حياته كلُّها مجنيًّاً عليه.

هل أخطأ في حقّ « كوكسون» أم أنّه هو مَن دهسه تحت أقدام الخوف من احتلالٍ قادمٍ لا محالة.

كلُّ ذلك لا يهمُّ، لم يستطع «عبد الباسط « أن ينتشي بخبر نجاة « كوكسون» بعد أن عرفَت الشرطة أوصافه.

تسلَّل في ضوءٍ خافتٍ يخرج من شرفات بيوت الحارة على الجانبين، وهو يمسك بيد أمّه وزوجته تسير خلفه وهي تمسك بيد ابنها، سخر من نفسه بضيقٍ فكان يشعر أنَّه كالهارب الذي فرّ بعدما أخذ بالثأر، فالثأر يُؤخَذ كي

ترفع رأسكَ، وها هو يفرُّ هارباً.

وصلوا إلى محطة القطار بعدما انتفخَتْ أقدامهم من السّير، جلسوا على رصيف المحطة يتأمّلون آخر ما تبقَّى لهم من مدينتهم التي أفنوا حياتهم بها قبل أن يستقلوا القطار في الصباح الباكر ثم تطأ أقدامهم أرض المحروسة.

ابتسم «مراد» وهو يتذكَّر قوله لوالده:

- وكيف استطاعوا العيش في بلدٍ لم يألفوه؟!

فابتسم والده قائلاً:

- قد تتزوّج أربعاً ولا يطيب لك المقام إلا مع واحدةٍ، لكن مصر أيُّ مكانٍ بها قادرٌ على أن يحتضنكَ.

دائماً ما يسأله السؤال نفسه، وهو يعلم أنَّ الإجابة واحدةٌ دائماً « أيُّ مكانٍ بها قادرٌ على أن يحتضنكَ».

حرق «مراد» جميع الأوراق، كان يستنشق دخانها كأنَّه نسيم ساحة الأقصى، وهواء الصباح على شاطئ

الإسكندرية، وهدوء شناشيل بصرة العراق وجلسة في حضرموت، ودماء مليون شهيدٍ بالجزائر، كان ثأره هو لكلِّ دولةٍ بها «عبد الباسط» !!

ابتسم بهدوءٍ وهو يسمع صوت طرقاتٍ قويةٍ على باب الشقة، فتح الباب ولم يتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ وهو يسلِّم يده للعسكريِّ الذي أمره الضابط باعتقاله.

****

(26)

خرج «أبوالمجد» من منزل «عزّ» مسرعاً بعدما أخبره وكيل النيابة بكارثته الكبرى، ترى ماذا سيحلّ بهذا الرجل الذي فقد أسرته منذ دقائق؟!

فكّر وكيل النيابة في ذلك وهو يرى «أبو المجد» ينزل مسرعاً نحو سيارته بعدما أخبره بأمر الحريق الذي حلَّ بمنزله.

جلس «أبوالمجد» خلف عجلة القيادة وقبل أن يمدَّ يده عليها وجد يداً أخرى تسبقه تمتدّ من نافذة السيارة وتنزع المفتاح من المحرك، رفع وجهه فاصطدم بوجه «صوفيا»، التقَتْ نظراتهما للحظاتٍ معدودةٍ، ثم دارت «صوفيا» حول السيارة وجلسَتْ بجواره، كانَتْ ملامحها جامدةً حتى ابتسمَتْ بسخريةٍ ثم نظرَتْ إليه وهي تصفّق

بإعجابٍ:

- ربحتَ هذه المرة.

ردَّ عليها بتحدٍّ:

- كنتُ أتمنَّى لو أنني قلتُ لكِ، حظٌّ سعيدٌ المرة القادمة، لكن للأسف لن تكون هناك أيُّ جولاتٍ أخرى بيننا.

- هل سئمتَ من اللعب معنا؟!

- في الواقع نعَم، أنا لا أستمتع باللعب مع الأغبياء.

- أنتَ سلَّمتَ رقبتي لهم ولم تعبأْ بابنكَ.

قهقه عالياً حتى سعل بشدَّةٍ ثم نظر في عينيها وهو يقول:

- صوفيا، كنت أعلم أنَّكِ غبيةٌ رعناء، لكن لم أتوقَّع أنكِ مازلتِ بمثل هذا الغباء، ظننتُ أنَّ الدرس الذي لقنتكِ إيّاه سيحدُّ من مستوى الغباء عندكِ يا صوفيا.

ضاقَتْ عيناها باستفهامٍ، فاقترب منها أكثر ثم استطردَ:

- أنا أعلم منذ البداية أنَّها لم تكن سوى كذبةٍ دنيئةٍ مثلكِ،

ليس لي ولدٌ منكِ، ولو أنَّه موجودٌ بالفعل لقتلتُه.

رسمَتْ ابتسامةً ساخرةً على جانب شفتيها وهي تقول بلهجةٍ ذات مغزى:

- أنا أثق من ذلك.

****

(27)

كان «أبوالمجد» يصارع الوقت وهو متَّجهٌ نحو منزله الذي تحوّل إلى رفاتٍ لذكريات طفولة أولاده، لم يسمح لنفسه أن يتعلق بشيءٍ في هذا المنزل سوى تلك الذكريات، يوم أن كان أولاده يفعلون كلَّ شيءٍ بحريةٍ مطلقةٍ، عفوية لم يستطع أن يقف أمامها، إلى أن بدأ عودهم يشتدّ، فاستطاع أن يمنع عنهم لذّة الحياة وسدَّ عنهم جميع أبوابها، لم يشأ أن يعلّقهم بها.

أوقف سيارته بالقرب من المنزل الذي أحاطتْ به الشرطة ورجال الإطفاء من كلِّ جانبٍ ثم اقترب منهم ببطءٍ، لم ينتبه للدموع التي سالَتْ على وجنتيه لأوَّل مرةٍ ووخزة في قلبه تنبؤه بفقدان جزءٍ منه، وربَّما أوشك هو على فقدان نفسه، تنفَّس بعمقٍ، وهو يستعيد بذاكرته ما حدث منذ وقتٍ قصيرٍ قبل أن يتجه لمنزل

«عز»، لم يعلم لماذا أكلَتْ نيران الخوف قلبه وهو يلقي نظرةً أخيرةً على زوجته التي لم يرَ منها سيّئاً منذ زواجه بها، لم يتوقّع أن يجد مَن يتقبّله كما فعلَتْ هي، حانَتْ منه التفاتةٌ نحو أبنائه، فلم يشعر بنفسه إلا وهو يضع لهم منوّماً في العصير الذي كان قد أُعدَّ لهم، ومن ثمّ أشعل النيران بالمنزل ثم فرَّ منه متّجهاً نحو منزل «عز».

مسح دموعه بيده وهو يضع الأخرى على قلبه، مازال لديه بعض الوقت بالتأكيد، «مراد» لن يستسلم بسهولةٍ على أيّ حالٍ، كان يعلم منذ البداية أنَّ «مراد» لديه سببٌ قويٌّ يحارب من أجله، لم يكن يعرف ما هو بالتحديد ولم يسأله، كان يكفيه حماسه وإخلاصه، اكتفى بأنَّ «مراد» استطاع أن يصمد للنهاية، ولم ينهَرْ كما فعل «سالم عبد الرحمن»!!

****

(28)

مرَّ يومان على الحادث الأليم الذي أودى بحياة أسرة «أبو المجد» كاملةً، ولم يتبقَّ منها سواه، مازال «مراد» متماسكاً.

كان «أبوالمجد» يعلم أنّه سينتهي على كلّ حالٍ، ولم يكن يعبأ بذلك ـ قلتُ لكَ من قبل إنَّه كان يصارع الوقت. أتتذكر ذلك؟ ـ لكني لم أقل لك إنَّه كان يصارعه من أجل شيءٍ واحدٍ فقط « نضال « !

أوقف «أبو المجد» سيارته أمام مستشفى الأمراض النفسية والعصبية بالعباسية، ثم دخل سيراً على قدميه من البوابة الكبيرة للمستشفى طالباً زيارة الطبيب الذي يشرف على حالة «نضال»، جلس أمام مكتب الطبيب ولم يعبأ كثيراً بكلامه، يقول إنَّ «نضال « قد أُصيبَ بصدمةٍ عصبيةٍ أفقدَتْه توازنه العقليّ، وحده «أبو المجد» الذي يعرف ما حلّ بعقل «نضال»، لكنَّه لن يخبر أيَّ أحدٍ بذلك،

تبقى العباسية هي المكان الأصلح للعيش على الإطلاق.

كان يعلم أنَّ وقتاً يفترسه خاصَّةً بعدما أتاه خبر اعتراف «مراد»، لابدَّ أنَّ الشرطة تبحث عنه الآن ولن تستغرق وقتاً كبيراً في الوصول إليه لذلك طلب رؤية «نضال» فأوصله الطبيب أمام غرفته وانصرف.

دلف إلى الغرفة ببطءٍ، كان «نضال» متقوقعاً على نفسه في السرير، نظر إليه «أبو المجد» وهو يقول:

- هل تعلم أنني أحقد عليكَ بسبب حالتكَ هذه؟!

لم يحرك «نضال» ساكناً فنظر «أبو المجد» للجملة التي كتبَتْ بأيدٍ مرتعشةٍ على الحائط بجوار السرير «كنَّا بخير لولا الآخرون»، نظر إليها مليَّاً ثم جلس على طرف السرير وهو يخلع سترته ويضعها على فخذيه:

- في الحقيقة لستُ أعلم مَن منَّا أقوى من الآخر، أنتَ انهرت من مقتل أبيكَ وأختكَ، وأنا قتلتُ والدكَ، ثم ضحيتُ بأختكَ رغم براءتها، ومن ثمّ بصديقي «عزّ»،وسلمت رقبة «مراد» لحبل المشنقة، وقتلت

زوجتي وأولادي، كلّ ذلك ومازلتُ متماسكاً.

مازال «نضال» على صمته، فسكت أبو المجد قليلاً ثم تابع:

- عندما استسلم والدكَ وخضع لتهديداتهم لم أستطع لَوْمه ولو للحظةٍ لواحدةٍ، أنهكَ روحي بخطابٍ عاطفيٍّ من خوفه على أختكَ، قال إنَّكَ صلبٌ تستطيع الصمود.

لم أستطع منعه ولم يكن أمامي خيارٌ آخر سوى تدبير حادث موته، هم كانوا سيقتلونه على كلّ حالٍ، لكن لا تنكر أنَّني نفذت ذلك بطريقةٍ أكثر شفقة منهم.

شردَ قليلاً ثم قال وهو يمسح عبرةً سالَتْ رغماً عنه:

- ذلك الحلّ اخترته لزوجتي وأولادي أيضاً، أستطيع قتلهم، لكنني لا أستطيع أن أراهم لعبةً في أيديهم.

اليوم فقط أتمنَّى لو أنَّني أقابلُ والدكَ لحظةً واحدةً حتى أصفّق له وأخبره أنَّه كان على صوابٍ، نعَمْ، لقد كنتَ أنتَ صلباً بما فيه الكفاية، أكثر منّي قوة، والدليل على ذلك أنَّكَ اليوم داخل أسوار العباسية،

أمَّا أنا ففي بوتقةٍ واحدةٍ في الخارج مع أولئك الضعفاء والجبناء وفاقدي العقول.

صدقني يا نضال، أنا أعلم أنَّ هناك جرائم عديدةً حدثَتْ في الفترة الماضية بل تحدث منذ أقدم العصور، لكنَّكَ لو أردتَ تتبُّعها فستعلم أنَّها بلا مصدرٍ، سينهلكَ تعقُّدها، ولن تعرف مَن الجاني ومَن المجنيّ عليه؟، أمَّا جريمتي أنا فقد نلتُ عقابي عليها مسبقاً، لم أكن بهذا الشرِّ لكن صنعَتْه بريطانيا بداخلي منذ أمدٍ بعيدٍ.

نهض من مكانه وهو يرتدي سترته، نظر إلى دموع «نضال» التي أغرقَتْ وسادته ثمَّ قال:

- هنا أضمن لكَ ألَّا تسيل دموعكَ سوى مرةٍ واحدةٍ فقط.

سار في المستشفى حتى وصل إلى سيارات الشرطة التي كانَتْ تنتظره بالخارج، ولم ينبس ببنت شفةٍ، بل ركب السيارة وعلى شفتيه ابتسامةٌ ممزوجةٌ بالانتصار والعناء.

"تمـَّتْ"

الكاتبة في سطورٍ.

أسماء أبوالعطا.

- كاتبة مصرية، من مواليد محافظة الفيوم، حاصلة على ليسانس أصول الدين قسم العقيدة والفلسفة جامعة الأزهر.
- باحثة في مجال العقيدة والفلسفة .
- صدر لها رواية «استدعاء شيطاني» في عام ٢٠١٦م.
- وشاركَتْ في عدة مجموعاتٍ قصصيةٍ منها:
  - شغف الحروف.
  - رؤى حالمة.
  - وعد الروح.

- معزوفة روح.
- ملحمة القلوب.
- كوكب العزلة.

- ولها مجموعةٌ قصصيةٌ بعنوان «حواء بين الأهواء» بالاشتراك مع الدكتورة خلود زين.
- كما شاركَتْ في روايةٍ تفاعليةٍ بعنوان «الطلسم الملعون».
- فازَتْ بعدة جوائز في القصة القصيرة والرواية.
- وفازَتْ روايتها «استدعاء شيطاني» بالمركز الأول في الرواية في مسابقة كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر فرع بني سويف.

في جميع الأعمال الأدبية يأتي الشكر في مقدمة الكتاب، نشكر صديقاً أو حبيباً أو حتى الدار التي عملَتْ على إعداد الكتاب وكلّ مَن أسهمَ في وصوله إلى القارئ، لكنّي هنا أتيتُ به مؤخّراً حتى لا يراه أحدٌ غيركَ أنتَ، فأنا والجميع منتفعون مادّيّاً على أقل التقديرات، إلّا أنت فمسألة انتفاعكَ نسبيةٌ، تتفاوت باختلاف إعجابكَ واستفادتكَ من العمل، لذلك شكراً لك عزيزي القارئ.

شكراً لك وحدكَ .

أسماء أبو العطا